آفاق الحوار بين الحضارات والثقافات

(نحو ثقافة حوار في مواجهة ثقافة العنف)

كتبه:

أ. د. عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى (سابقاً)

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

المؤلف الدكتور/عبد الستار فتح الله سعيد

١- بدأ البحث بمقدمة عامة لبيان أن نعمة الحوار البشري هي هبة قديمة من الله تعالى، وقد أفسدها المجادلون في الحق، واستمر ذلك إلى عصرنا هذا، ولذلك حرص الباحث على الرجوع إلى القرآن والسنة لبيان هذا، ودعا الأمة الإسلامية إلى محاورة الناس جميعاً بحقائق الإسلام، المحفوظة في الكتاب والسنة.

٢- قسم الباحث بحثه إلى ستة فصول:

الفصل الأول: بين فيه معاني الكلمات الأساسية: (الحوار - الحضارة - الثقافة)، وما يتصل منها بالدين الإلهي.

الفصل الثاني: بين فيه حديث القرآن عن نشأة الإنسان مكتمل العقيدة والدين، وأن حضارته المادية تدرجت تباعاً، وبين فضل الله على الإنسان بتعليمه وإرسال الرسل إليه.

الفصل الثالث: كان عن حوار الرسل والأمم، وما جرى فيه من الحق المطلق في جانب الرسل، ثم الضلال والجدل البالغ من الأمم، حتى أهلك الله تعالى أجيالها وقرونها بذنوبهم وجدالهم بالباطل.

الفصل الرابع: عن الرسالة الخاتمة، وكيف بعث بها الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل الله معجزته كتابا يتلى، يقوم على الحوار والبيان، والدليل والبرهان، وهو حجة مستمرة إلى يوم القيامة.

وتحدث الباحث عن الأمة المستخلفة لحمل هذا الدين إلى يوم القيامة، لتكون امتداداً لصوت النبوة، بعد وفاة النبي الخاتم ﷺ.

الفصل الخامس: تحدث فيه الباحث عن مهمة هذه الأمة وضرورتها المستمرة ووجوب: الالتزام، والدعوة والبلاغ، والجهاد على هذه الأمة إلى يوم القيامة.

الفصل السادس وعنوانه: المسلمون وحوار الحضارات والثقافات بين الباحث الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري والثقافي بين الأمم. وهي ضوابط تمثل أرقى الشرائع الدينية والحضارية وتحدث عن مزاعم صراع الحضارات، ومحاولة فرض الثقافات وما فيه من خطر داهم على الدين، مما أوقع الأمة في محنة عاصفة، لا مخرج منها إلا بعودتنا الشاملة إلى الإسلام مهما تكن العقبات، لأن الله وعدنا بالنصر المبين إذا أقمنا هذا الحق الإلهي، ودعونا الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفي البحث تفصيلات كثيرة وتقسيمات متعددة، واستدلال بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

والله الموفق،،

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده المرسلين، وعلى خاتمهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين (أما بعد):

فقد خلق الله الإنسان، وعلمه البيان، ترجمانا لعقله وفكره، ووسيلة للفهم والتفهيم، وللعلم والتعليم، وليعبد ربه الذي أنشأه مكتمل العقيدة والدين، فامتاز بذلك على غيره، وتصاعد في مدارج الحضارة والمدنية جيلا بعد جيل، بفضل هذه النعمة الإلهية السابغة.

ولكن فريقا من البشر بدلوا نعمة الله كفرا، واستخدموها في فنون المجادلات والمنازعات، والمراء والافتراء، والكذب والتكذيب، فضلوا بذلك قولا وعملا، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

ولما بعث الله تعالى رسله مبشرين ومنذرين، ودعاة هداة إلى الحق المبين قامت الأمم في وجوههم، وردوا أيديهم في أفواههم، ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

ولقد كان من أعظم الحكم أن جعل الله معجزة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم كتابا يتلى على الناس، يحاور العقول والأفكار، ويعتمد على الدليل والبرهان، ويعلم الناس خطاب الرب الأعلى، ويسجل لهم محاورات الرسل، ومجادلات الأمم، ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بخير الطرق: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأن يجاهد المجادلين بهذا الهدى الإلهي المبين: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

فكان القرآن هو هدى الله وسبيله، ومعجزة النبي ودليله، والأمانة العظمى التي كلفت أمته - من بعده - أن تحملها للعالمين.

نصر الله رسوله والمؤمنين معه، وأخرج منهم خير أمة للناس، فأنشأوا بالقرآن والإسلام حضارة زاهرة، تؤمن بالله والمرسلين، وتقوم على الإيمان والعلم، وتزاوج بين الروح والمادة، فسعد العالم كله بذلك الفضل الإلهي، الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن المسلمين أدركتهم غمرة من دنياهم، وفرطوا في هذه الأمانة العظمى، فقفز المبطلون إلى قيادة البشرية، فمالوا بالدين والدنيا ميلا عظيما، واستعلت قوى الظلم والفساد، وطمسوا بمادتهم المجردة روح الإنسانية، واستبدلوا بشرائع الوحي الإلهي أهواء وفلسفات، وثقافات طامسة دامسة، يحاولون الآن فرضها على المستضعفين من المسلمين وغيرهم، مما أوقع العالم كله في شر مستطير، لا منقذ منه إلا الهدى الإلهي الجليل، والأمة المستخلفة عليه من رب العالمين، تطبيقا والتزاما، ودعوة وبلاغا.

نحن أمة الدعوة والبلاغ المبين، ولسنا أمة صراع وأحقاد، ولا يصلح لعالم مدجج بالسلاح إلا الحوار الهادئ الهادي، ولا يوجد كتاب في الأرض غير القرآن يخرج الناس من هذه الأزمات المتلاحقة: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾**﴾ [المائدة].

وقد أحسنت الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي باختيار موضوع: (الحوار الحضاري والثقافي)، وعلينا نحن المسلمين أن نقدم ديننا، وهدى ربنا إلى الناس جميعاً، لنزيل الغبش عن هذا الحق المبين، وليعرف الناس هذا الإسلام الذي لا يزال مجهولاً عند ملايين البشر، والقرآن العظيم لابد له من أمة تحمله للناس، وتبين هديه ونوره في كل مناسبة، ولذلك حرصت على أن تكون هذه الدراسة إسلامية قرآنية، إيماناً بأن هذا هو طريقنا المتفرد، لإنقاذ أنفسنا، وإنقاذ العالم من ورائنا، ولا يجوز أن نخدع

بالفلسفات المادية مهما أخذت زخرفها وازينت، لأنها سراب خادع، وجدليات مهلكة، تقود البشرية - الآن - إلى الهاوية السحيقة. حين أهدرت الدين، والروح، والقيم العليا التي تميز بها الإنسان عن كل ما عداه!!

فيا أمة الإسلام، ويا حكام المسلمين

ويا علماء هم، وقادتهم في كل شعب الحياة.

هذه مهمتنا، ومسئوليتنا بين يدى الله

فأجمعوا أمركم، واعرفوا طريقكم المتفرد، واحملوا تبعاته العظام، لنقود العالم مرة أخرى إلى صراط الله: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [**الأنعام**: ١٥٣].

هدانا الله جميعاً إلى خير ما يحب ويرضى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

صفحة أبيض

الفصل الأول

تحديـد المعانـي

يحتوي العنوان على عدد من الألفاظ المهمة، التي تحتاج إلى تحرير وتحديد، وضبط للمعاني الفضفاضة التي تنسب إليها؛ وهي: (الحوار - الحضارة - الثقافة) ونتناولها على الترتيب:

أولاً: (الحوار)

ويقال أيضاً: المحاورة، والتحاور: المرادّة في الكلام[1] ويكون بين طرفين فصاعدا، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾ [**المجادلة**: ١]، والخطاب هنا للنبي ﷺ وللمرأة التي كانت تجادله في زوجها الذي ظاهر منها.

ويقول تعالى عن حوار الرجلين: الكافر والمؤمن:

﴿**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ [**الكهف**: ٣٤].

﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً**﴾ [**الكهف**: ٣٧].

والحياة البشرية كلها تقوم على هذا الحوار - قديما وحديثا - في سائر شئون الحياة، وفي الدنيا والآخرة على سواء.

أنواع الحوار:

قد يكون الحوار فطريا في أيسر صوره مثل لغة التخاطب في البيوت والأسواق، والتعارف بين الناس، والسؤال والجواب .. الخ .

ومنه ما يكون قائما على ضروب من الإعداد، أو التكلف، أو على الصناعة الكلامية الجدلية.

وأصلاً يكون باللسان والبيان القولي، ومنه ما يكون حواراً قلمياً مثل

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة: (حور).

الرسائل والكتب، والقصص والروايات المكتوبة، لأن القلم أحد اللسانين كما تقول العرب، أو هو اللسان الثاني عند أهل الأدب.

وإذا دار (الحوار) في إطار المودة والتفاهم، أو الدعوة والبلاغ، أو الاستفهام والاسترشاد سُمّيّ بما يناسبه مثل:

التساؤل، أو التناصح، او الجدال بالحسنى، ونحو ذلك، قال تعالى عن أهل الكهف:

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ... ﴾ [الكهف: ١٩].

وقال تعالى عن حوار النبي ﷺ: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ [النحل: ١٢٥]

وإذا دار الحوار في إطار التنازع، أو العناد سُمي على شاكلته مثل: التخاصم، أو المكابرة، أو المجادلة بالباطل، ونحو ذلك:

قال تعالى بعد أن قص لونا من حوار أهل النار في النار:

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٥٩ – ٦٤]

وقال تعالى عن حوار الكفار: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]

وهذا غيض من فيض مما ورد في القرآن الكريم عن التحاور بأنواعه وأسمائه الكثيرة، وبلفظه هذا أو ما في معناه وهو أكثر، وهو يكاد يكون سمة عامة في الأحياء التي بثها الله في الكون، ولكل لغته أو طريقته التي علّمه الله إياها، كما قال تعالى على لسان نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

وقد وهب الله الإنسان – خاصة – قدرة واسعة على التحاور والتخاطب حتى قال الله فيه: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤].

وكان ممّا قصه الله علينا في كتابه ألوانا من محاورات البشر مع

بعضهم البعض، أو بين الأنبياء وأممهم، أو بينهم وبين الملائكة عليهم السلام، أو بينهم وبين الجن والشياطين، أو غير ذلك كمحاورة سليمان عليه السلام مع الهدهد الذي هدى الله به أمة إلى الإسلام، أو الكلام مع الدابة في آخر الزمان. (سورة النمل: ٢٠،٨٢).

الحوار نعمة أو نقمة؟:

ومن هذا تبين أن الحوار ضرورة للتفاهم والتواصل بين الأحياء، وخاصة البشر، وهو نعمة عظيمة من نعم الله عز وجل، ثم هو مسئولية كبرى بين يدي الله تعالى، فمن استعمل هذه النعمة بحقها سعد وفاز في الدارين، ومن انحرف بها، واستعملها في غير موضعها هلك وأهلك وخسر في الدارين خسرانا مبينا!!

ورسالة الرسل جميعا مصداق لهذا، ولعل إلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ..**﴾ [**إبراهيم**: ٤].

وكثيرا ما كان هذا الحوار الجدلي العابث هو مفتاح هلاك الأمم، ومدخل انتظام العقوبة الإلهية لهم في كل العصور، كما قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [**غافر**: ٥].

وفي هذا أبلغ النذر للأمم المعاصرة التي استكبرت في الأرض بغير الحق، وتجادل بالباطل في كل القيم والشرائع التي بعث الله تعالى بها رسله، ثم تحاول أن تفرض عبثها وباطلها على الأمم والشعوب، غافلة عن سنن الله عز وجل في الأولين والآخرين: ﴿**اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [**فاطر**: ٤٣].

وسنعود إلى تفصيل ذلك في مواضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ثانياً: (الحضارة)

«الحضر خلاف البدو، والحَضارة والحِضارة: السكون بالحضر، .. ثم جعل ذلك اسما لشهادة مكان، أو إنسان، أو غيره»[1].

وأرى أن أخذ (الحضارة) من الحضور هي المعنى الأسبق في اللغة، والألصق بمعنى التقدم الإنساني ونحوه.

ذلك لأن (الحضور) معناه: المعاينة والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ..** ﴾ [**آل عمران**: ٣٠].

وكما قال تعالى: ﴿ **وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ** ﴾ [**الأعراف**: ١٦٣].

أي: قريبة من البحر، مشرفة على شاطئه، وهي (أيلة) التي تقع بين الطور ومدين كما يقول المفسرون.

ومعنى (الحضور) هو الذي يصنع التقدم الإنساني، الذي يكون نتيجة الجهود الجماعية لأقوام حاضرين في مكان ما، ثابتين لا يرحلون، مشاهدين لا يغيبون في فيافي الصحراء الواسعة، شأن البدو الذين يضطرون إلى كثرة الترحال وراء العشب والماء، فلا يستطيعون التأثير في قيام الحضارة بمعناها الواسع.

وقد عرّفت الحضارة عند بعض الباحثين المعاصرين بأنها:

«ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته على وجه الأرض مادياً أو معنوياً».

«ومن الواضح أن التحسن المعنوي مقدم على التحسن المادي»[2].

وللحضارة مظهران:

المظهر المادي: ويتجلى فيما يحرزه الإنسان في مجالات الحياة المادية كالعمارة، والأدوات الصناعية والزراعية..

---

(١) مفردات القرآن، للراغب الأصفهاني مادة: (حضر).

(٢) انظر كتاب الحضارة.. للدكتور حسين مؤنس، ص١٥-٥٦.

المظهر المعنوي: ونعني به العقل والروحي، .. كالأخلاق، والقانون، والعلوم بأنواعها، والفنون بألوانها[1] .

ولعل لهذا سميت المدن الكبيرة (بالحضر)، لحضور الناس فيها، وعدم غيابهم الطويل عنها، وبالتالي يتعاون التجمع البشري على ما ينفع الجميع، تلبية لحاجاتهم المتعددة، وهنا تنشأ الحضارة - بأي درجة - ثم تزدهر تباعا.

ومعلوم أن ظاهرة «**التجمع**» تشيع بين الأحياء من المخلوقات، ولكنها تأخذ في الإنسان شكلا خاصا، أكثر انضباطا وتنظيما من غيره، وتكاد تنفرد باستحداث الوسائل الصناعية للحياة، واكتساب العلوم والمعارف، واستخدام نتائج التجارب، ولذلك صارت هذه الظاهرة عند الإنسان أعظم سموا وتفاعلا، وتأثيرا وتأثرا حتى غدت بمنزلة (خاصة) للإنسان تميزه عن غيره من الأحياء.

وحتى قيل في تمييزه أنه: «مدني بطبعه»، ولا يمكن استمرار (التجمع) البشري إلا إذا نظم على أساس عدد من القواعد، والشرائع، أو القوانين، أو الأعراف والتقاليد تكون ملزمة للجميع طوعا أو جبرا، وإلا انحل هذا الاجتماع، وتبدد وقد أجاد الشاعر العربي في بيان ذلك:

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحوا فإن تولوا فبالأشرار تنقاد

المدَنية البشرية:

ولذلك خلق الله تعالى الإنسان «متدينا بالفطرة»، ثم نظم له حياته بشريعته، وزوده بالعقل ليجلب به لنفسه الخير، وليدفع عن نفسه الشر، وبذلك أعطى كل أسباب الحضارة ومقوماتها فقامت تجمعاته في (المدن) الكبيرة المنظمة، فصارت حضارته (مدنية) واسعة النطاق.

---

(١) الإسلام فكرا وحضارة، للدكتور/محمد كمال شبانة، ص١٥٠.

و (المدينة) في أصلها مأخوذة من (الدِّين) بمعنى الشرائع التي تنظم حياة الناس، وتحقق لهم الأمن، وتفصل في خصوماتهم وهذا أصله كله من الوحي الإلهي للرسل والأنبياء عليهم السلام، ثم أضافت إليه الأمم في انحرافاتها ما يضبط حياتها كما قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ [**يوسف** : ٧٦].

والمراد في قوانين الملك الذي كان يحكم مصر يومئذ.

(وقد أشار البحث اللغوي إلى أن كلمة مدينة ترجع أصلا إلى كلمة دين، ولهذه الكلمة أصل في الآرامية والعربية، وعرفت المدنية عند الأكديين والأشوريين بالدين أي (القانون) كما أن (الديان) يقصد بها .. (القاضي)، (والحاكم)، (والملك) وكل المواضع التي أطلق عليها القرآن الكريم لفظ (مدينة) كان عليها حكام وملوك، وفيها على وجه التحقيق الصيغة القضائية؛ والدينية، والإدارية، والسياسية)[(١)].

ثالثاً: (الثقافة)

ورد مادة (ثَقِفَ) في اللغة العربية بمعنى: الحذق، والفهم، وسرعة التعلم.

قال الراغب: «الثَّقْف : الحذق في إدراك الشيء وفعله، .. ورمح مثقف: أي مقوم، ويقال : ثقفت كذا، إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ..»[(٢)].

وقال ابن السكيت: رجل ثقف لقف، إذا كان ضابطا لما يحويه، قائما به، ويقال: ثقف الشيء، وهو سرعة التعلم.

وقالوا : رجل ثَقْف لقْف، وثَقِف لَقِف: رامٍ راوٍ .

وثُقف الرجل ثقافة، أي صار حاذقا خفيفا.

والثِّقاف والثِّقافة جديدة مع القوّاس، أو الرمّاح يقوّم بها الشيء المعوّج حتى يعتدل.

---

(١) انظر كتاب: المدينة الإسلامية للدكتور/محمد عبد الستار عثمان، ص١٧ وما بعدها، بتصرف واختصار.
(٢) مفردات القرآن، مادة: (ثقف).

وفي المعجم الوسيط تفصيل دقيق لذلك ومنه:

(ثقَّف) ثقفا: صار حادقا فطنا .. والخلُّ: اشتدت حموضته .. والعلمَ والصناعة: حذقها، والرجل في الحرب أدركه، والشيء: ظفر به، وفي التنزيل: ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ [**البقرة**: ١٩١].

(ثاقفة) مثاقفة وثقافا: خاصمة، وجالده بالسلاح، ولاعبه إظهارا للمهارة.

(ثقِّف) الشيءَ: أقام المعوجّ منه وسواه، والإنسانَ: أدبه وهذبه وعلمه (مولد أي لظ استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية).

(الثقافة): العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها[١] .

فالمادة واسعة الدلالة في اللغة العربية، وتشمل المحسوسات والمعاني والأفكار، حقيقة ومجازا.

اتساع المعنى حديثا:

وللباحثين اجتهادات كثيرة في تحديد معنى (الثقافة) في العصر الحديث فمنهم من يجعلها: (كل ما يميز الإنسان عن غيره ويجعله إنساناً) وهي بذلك مقاربة أو مرادفة لمعنى: (الحضارة).

ومنهم من يجعلها: كل ما يميز شعبا عن شعب آخر، أي الطريقة الخاصة بشعب ما في الحياة، بكل ما تضمه حياة هذا الشعب من تفاصيل في أساليب ووسائل الطعام، والشراب، والمساكن، والأثاث، والأقاصيص، والحكم والأمثال، وطرائق الزواج، وتنظيم الأسرة، وملابس الرجال والنساء وغير ذلك.

فالثقافة إذن هي ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة[٢].

أو هي مجموع المعلومات، والمعارف، والممارسات، والقيم الخاصة بشعب

---

(١) المعجم الوسيط جـ١، مادة (ثقف) واللفظ الأخير أقره مجمع اللغة العربي.

(٢) راجع كتاب (الحضارة) للدكتور/حسين مؤنس، ص٣٦٩ وما بعدها: الفصل السادس: الثقافة والحضارة.

مّا، والتي يعيش بمقتضاها، وتميزه عن غيره من الشعوب .. وهذا معنى جديد في كل اللغات ظهر منذ نحو ثلاثين سنه ونقل إلى اللغة العربية وغيرها[1].

---

(١) السابق: ص٣٩٨.

الفصل الثاني
الإنسان بين الهدى والضلال

تكريم وتمكين الإنسان:

خلق الله تعالى الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، وأسكنه وزوجه الجنة، وهداه إلى شريعة الحق المناسبة لحياته يومئذ.

ولما أهبط إلى الأرض كان الله تعالى قد زوده بخصائص كبرى، تجعله أقدر المخلوقات على الاستخلاف في الأرض، وأعظمهم استعدادا لاستعمارها، وإحياء الموات في جنباتها، بما وهبه الله عز وجل من نعم لا تحصى منها:

١- الدين الهادي: (الإسلام)، وهو دين الله لعبادة في كل العصور.

٢- العقل المفكر، الذي يميز الأشياء والأحياء، ويختزن المعلومات والتجارب، ويتذكرها ويسترجعها عند الحاجة.

٣- البيان المفصح عما في نفسه من المعاني فيُفهم، ويَفْهم.

٤- الحواس المدركة (ظاهرة وباطنة) من السمع والبصر، والشم، والذوق، واللمس، والاستشعار بما ينفعه أو يضره، كالجوع والعطش، والحرارة والبرودة .. الخ.

٥- البيئة المهيئة بكل ما يحتاجه، والمسخرة له، والمزودة بكل العناصر القابلة للتحويل، والتشكيل، والتثمير .. الخ.

وقد فصل الله تعالى لنا ذلك في كتابه الكريم تفصيلا وافيا مثل قوله تعالى:

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ [البقرة: ٣٠]

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن].

وقد جعل الله تعالى دينه (فطرة) في أصل خلقة هذا الإنسان المستخلف:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

ثم جعله وحيا يوحي، وهديا يتبع، وشرعا مفصلا، وحذر من عواقب الأعراض عنه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وجعل سبحانه عمارة الأرض - في ظل شريعته - مهمة كبرى للإنسان، يستحق بها كرامة الدنيا والآخرة قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٦١].

وبهذا وكثير غيره استحق الإنسان التفوق والامتياز، على سائر المخلوقات حوله، في شئون الدين والدنيا، والروح والمادة، والتكوين والتمكين، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠]

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكان من أجلّ عوامل التمكين، والتفضيل للإنسان ما وهبه الله تعالى له من (العلم) بأنواعه، حين علم آدم وذريته فنونه من قراءة الخط، وكتابة القلم، وتسطير العلوم والمعارف التي ما كان له أن يعلمها إلا بفضل الله، وتعليمه إياه كما قال تعالى:

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

نشأة الحضارة وملحقاتها:

وبفضل الله ورعايته درج الإنسان على الأرض، مزودا بأجل عناصر الحضارة الإنسانية، وهو (دين الله) عز وجل، فكان عابدا موحدا، عالما بخالقه وغاية خلقه، عاملا بأمر ربه وشرعه وهديه، موقنا بالدار الآخرة، وما فيها من جزاء للطائعين والعاصين. ولكنه في الجانب (المادي) كان في أول الطريق، يلتمس وسائل الحياة والمعاش مما علمه ربه مباشرة، أو بما أودع الله فيه من مواهب العقل، والبيان، والتجارب، وبما سخر الله له حوله من الأشياء والأحياء، وبما ذلل له من مناكب الأرض: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

قصة ابني آدم:

وهي قصة خليقة بتأمل ألفاظها ومعانيها الباهرة، قال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

ونوجز هنا بعض دلائل القصة:

١- لقد ضل البشر قديما وحديثا في تفسير نشأة الإنسان، وقيام حضارته، ومعرفة الدين الحق، وهذه القصة تبرز لنا الأمر من أول البشرية (ابني آدم): قابيل وهابيل، ولأنها ليست رجما بالغيب مثل أساطير البشر قال الله تعالى: (بالحق) أي بالخبر المطابق للواقع والحقيقة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

٢- تقوم الحضارة الإنسانية في كل العصور على جانبين:

(أ) الجانب الديني، أو الروحي، أو المعنوي .. الخ .

(ب) الجانب المادي، أو الحسي، أو العملي.

والقصة القرآنية تبرز بوضوح تام أمرا على غاية الأهمية وهو أن الإنسان من أول أمره نشأ مكتمل (العقيدة والدين) عالما بشريعة الله وعبادته، ويتمثل ذلك في معرفة (القربان) لله، ومعرفة (الله) تعالى، وأنه (يتقبل) من المتقين، ومعرفة (الخوف من الله رب العالمين)، ومعرفة (الإثم) ومعرفة (النار) التي يعذب بها المجرمون الظالمون، وكل هذا معلوم من وحي الله لرسوله آدم.

٣- أما في الجانب (المادي) المتعلق هنا بدفن الميت فكان يجهله القاتل حتى تعلمه من غراب، لأن هذا القتيل أول قتيل على وجه الأرض، ولم تكن هناك سابقة ولا تجربة، وهكذا يمكن للإنسان أن يحصل الأمور المادية بالتجارب، أو الملاحظات، أو التقليد والمحاكاة، أو بالتفكير العقلي والاستنباط، لذلك ترك الإنسان لهذا كله ليتعلم، أما حقائق الدين التي لا يمكنه تحصيلها من هذه الطرق، فأعطيت له بواسطة الوحي الإلهي الجليل.

٤- النّدم من القاتل، ومعرفة طريقة الدفن أمران حضاريان، وهكذا تتابعت المعارف الحضارية المادية بالتدريج؛ إلى أن وصلت إلى الازدهار والاتساع في ظل الدين الإلهي الذي سبق - في الاكتمال - كل الجوانب المادية.

وهذا أبلغ الدليل على أن الحضارات الإنسانية تأسست ابتداء على الدين الإلهي (الإسلام)، وأن الحضارات التي تباعدت عن دين الله كانت شذوذا عن القاعدة، وانحرافا عن الطريق المستقيم، ومن هنا كانت بعثة الرسل كما سنبين بعد إن شاء الله.

٥- سبب كل إفساد في الأرض هو الظلم، والطغيان، وتجاوز المفسدين لشريعة الله.

حقائق الوحي الإلهي:

لذلك جاء الوحي الإلهي بالحقائق القاطعة، وعلمنا ربنا هذه العقائد الصادقة، وأنه سبحانه خلق الإنسان، وهيأه للتحضر والتقدم وعمارة الأرض عبر محوري (الثبات والمرونة) كالآتي:

أولاً: زوده الله تعالى بكل الحقائق المطلوبة لذلك من الدين، والعقل، والخصائص والملكات كالبيان، والحواس .. الخ.

ثانياً: خلق الله له كل المواد التي يحتاج إليها في مهمته الممتدة إلى آخر الدهر، في صورة أشياء مباشرة كالماء، والهواء .. أو كامنة قابلة للاستخراج، أو التحويل، أو التشكيل، كالمعادن المتعددة، والأخشاب، وألوان الزراعات .. الخ.

قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

وقال تعالى عن الأرض بعد خلقها:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]

وجعل الله تعالى سبيل الانتفاع التام بهذه النعم كالآتي:

أولاً: ما يستحيل أن يدركه الإنسان بذاته أو بأدواته وآلاته بينه له بيانا تاما شافيا، وفرضه عليه فرضا ملزما، رحمة بالإنسان حتى لا يزيغ ويهلك، وذلك كالدين كله، والتوحيد بصفة خاصة، وصفات الله تعالى عامة، وحقائق البعث والنشور، والجزاء بنوعيه.

ثانياً: ما يمكنه معرفة حكمه بجهد ومشقه، أو علم سبحانه وتعالى أن الناس يتخبطون فيه بسبب الهوي، أو المصالح الفاسدة، وهذا النوع أيضا

بينه سبحانه، وثبته، إنقاذا للإنسان من حيرته، وأهوائه، وشهواته، وذلك كالزنى، والشذوذ الجنسي، والربا، والخمر، وأكل الخنزير .. الخ.

ثالثاً: ما يمكن للإنسان الوصول إليه عبر استعمال العقل، أو تكرار التجارب، أو محاكاة ما حوله من الأشياء والأحياء .. فهذا النوع تركه الله تعالى مرسلا، مفتوحا، وحث الناس فيه على العلم والعمل، والفكر والنظر، والاجتهاد والسعي، ليصلوا فيه إلى غاية الممكن في كل زمان ومكان، وليتعودوا دائما بذل الجهود، وطلب الترقي والتقدم في الانتفاع بنعم الله التي سخرت لهم، واللازمة لعمارة الأرض وتحقيق مصالح الخلق.

وذلك مثل ألوان الزراعات، وفنون الصناعات، وبناء المساكن، وحياكة الملابس، وشق الأنهار، وإحياء الموات، وعلاج الأمراض .. الخ.

وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣]

والمعنى: يتفكرون فيعرفون قدرة الله ونعمته السابغة عليهم. أو يتفكرون بعقولهم ليستخرجوا ما أودعه الله تعالى لهم في السموات من طاقة الشمس والهواء، وأمثالها، وما أودعه لهم في الأرض من النعم الظاهرة والباطنة، بالزراعة، والصناعة، ووسائل الانتقال من الدواب، والسفن .. الخ.

التعدد البشري حكمة إلهية:

ولقد انتشر الناس في الأرض، وتوسعوا في العمل والسعي، وصاروا شعوبا وقبائل، وأمصارا وأقاليم، وأمما ودولا حسبما اقتضته حكمة الله لهم، وبذلك قامت في الأرض حضارات واسعة، تجاورت وتحاورت، وعمرت وثمرت كما شاء الله عز وجل.

وكان التعدد البشري لحكمة إلهية جليلة، إذ أشاع التنافس بين الناس، وحقق لهم التوازن بين القوى، والتكامل في المصالح والمنافع، كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴾ [الحجرات: ١٣].

والآية الكريمة تقرر أصلا أساسيا أن الناس جميعا متساوون في أصل الخلقة، وأن الله تعالى هو الذي فطرهم على (التعدد) لتحقيق مصالحهم، فهو للتعارف لا للتخالف، وهو للتكامل لا للتفاضل والتمييز العنصري أو الطبقي، وتقرر الآية الكريمة أن معيار التفاضل هو (تقوى) الله عز وجل، بإشاعة العدل، وترك الظلم، والخضوع للحق الإلهي المعلوم في الأرض دائما، وعلى ألسنة الرسل عليهم السلام.

والله تعالى لم يأذن لأمة واحدة أن تتحكم في الأمم، ولا لحضارة واحدة أن تسود الآخرين بالقوة والعنف، والظلم والاستكبار، لأن هذا مناقض لحكمة التعدد البشري، الذي هو ضرورة لحياة الناس من حيث هو تكامل بين الأمم لتحقيق المصالح، فكل يتنافس في التقدم وإنتاج ما ليس عند الآخرين، وكذلك من حيث تحقيق حكمة الله تعالى في الدفع والاستخلاف، حتى لا يتفرد الطغيان بمصائر الناس.!

وبالضرب في الأرض، والتبادل بين السلع، والانتقال الآمن من أمة إلى أمة، تتحقق المصالح، وتجري الأرزاق، وينقطع التحاسد والتحاقد بين الأمم، ويشيع الأمن بين الجميع، وقد امتن الله تعالى على (قريش) بما وفره لهم من هذا وهم في جاهلية طامسة فقال:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

ويتكرر هذا طالما التزمت الجماعات والأمم والدول بالعدل والإحسان اللذين أمر الله بهما، وابتعدوا عن الفحشاء والمنكر والبغي التي نهى الله عنها، واحترموا الوعود، والعهود، ولم يتلاعبوا بالمواثيق ليكونوا كما حذر الله:

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل: ٩٢].

وبذلك تقوم الأسواق، وتروج التجارات، وتتزاوج الحضارات، ويشيع التفاهم بين الأمم، ويقل أو ينعدم الصراع والصدام في المجتمعات البشرية، ولم تقم (مدنية) البشر إلا بهذا وأمثاله، وقد قدمنا أن لفظ (المدينة) مشتق من (الدين) بمعناه الشرعي الإلهي، أو حتى بمعناه الوضعي البشري[1] القانوني، لأن التزام الناس بقانون ما خير من الفوضى، والاعتداء الغاشم على الحقوق والحرمات!!

الظلم والفساد آفة الأرض:

وما من مرة في التاريخ البشري يضطرب الأمن، ويختل النظام، وتضيع مصالح الناس، ويشيع بينهم الذعر والخوف إلا بجنوح جماعة من البشر عن الطريق السّويّ، أو التعابس السلمي بين الأمم والجماعات، فيقع الظلم والبغي، وينتشر الفساد والإفساد في الأرض، ويتصادم الناس ويتصارعون، وتسفك الدماء، وتندلع الحروب بكل أهوالها وأوزارها!!

بدأ هذا حين اندلع الحقد والأنانية من ابن آدم الأول، فسفك دم أخيه غدرا وبغيا!!

ثم تسلسل هذا بين الجماعات نتيجة الطمع، وحب الأثرة واغتيال حقوق الآخرين، أو الرغبة في الانفراد بالمنافع بغيا وعدوانا.

ولذلك نهى الله تعالى عباده نهيا جازما عن الظلم، والإفساد، لأنهما المدخل المظلم لتدمير الإنسان، وحضارته، وقيمه العليا.

لذلك كانت وصية الوحي الإلهي في كل العصور للبشر:

﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ﴾ [**الأعراف**: ٥٦].

﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [**القصص**: ٧٧].

وقد ندد الله تعالى في كتابه الكريم بالفساد والمفسدين أكثر من

---

(١) القانون الوضعي خطيئة دينية بالغة في كل العصور، وشريعة الله دائماً موجودة وكافية، والمقصود بيان أن أي قانون هو أهون من الفوضي.

خمسين مرة، واستنكره بكل أنواعه وأوضاعه، فرديا كان أو جماعيا، خاصة إذا صدر من أكابر المجرمين والطواغيت، الذين لهم تأثير ونفوذ وسلطان على أممهم، فيسوقونهم إلى أفجع المصارع، وتخريب العمران، وسفك الدماء، لتكون للطواغيت الكبرياء في الأرض!!

وقد نبه الله تعالى عباده إلى أن الفساد والإفساد يجلب الدمار على أهله، ويستنزل عليهم سخط الله، وعذابه العاجل، وعقابه الناجز، كما قال تعالى عن الأمم السابقة:

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر].

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨] وهؤلاء لما تآمروا على قتل نبي اله صالح عليه السلام، وعلى عقر المعجزة المؤيدة له وهي الناقة كان جزاؤهم:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥١، ٥٢].

ولذلك استحث الله تعالى العقلاء في كل أمة ليقاوموا هذا الداء البشع، قبل أن يدمر الجميع، أو يهلك الصامتين عن الحق مع المجرمين، قال تعالى:

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود].

والمعنى بإيجاز:

هلاّ وجد في القرون التي أهلكت قبلكم، أصحاب بقية من عقل وخير ينهون المفسدين عن الفساد في الأرض، ويقاومون الباطل حتى لا ينزل العذاب على المفسدين والساكتين، وقد فعل ذلك قليل من اتباع الأنبياء عليهم

السلام لكن لم يكونوا مؤثرين في دفع الفساد، فنزل العذاب الجائح، وأنجى الله القلة المؤمنة، وأهلكت القرى الفاسدة المفسدة، ويقول المفسرون هنا ما خلاصته:

(والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لكون القوم معتقدين للشرك والكفر، إنما ينزل ذلك العذاب إذا خانوا في المعاملات، وسعوا في أذى الخلق وظلمهم، وإنما لم يهلكهم لمجرد شركهم، لأن مكافأة الشرك النار لاما دونها، وإنما يهلكهم بمعاصيهم زيادة على شركهم، مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بإنقاص الكيل والميزان...)(٢).

ودليل ذلك أنه قيل لفرعون حين أدركه الغرق وأعلن إيمانه وإسلامه:

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

ويقال مثل هذا كله عن الظلم والظالمين، فإن الفساد والظلم توأمان، أو شران متلازمان غالبا، وبينهما عموم وخصوص، فتارة يجتمعان، وقد ينفرد كل منهما بضرب من ضروب الخزى والعار.

الظلم المدمر:

وقد يكون الظلم أشنع وأشيع وأمرّ من صاحبه، لذلك ذكره الله تعالى في كتابه أكثر من (ثلثمائة) مرة، مصرفا القول فيه، محذرا منه غاية التحذير، لأن الفساد قد يحقق شهوة أو لذة لصاحبه، قاصرة عليه كالزنى والخمر والغناء الماجن، لكن الظلم يكون متعديا للغير، مرير الوقع، فادح الأثر لذلك قيل بحق: «العدل يعمّر، والظلم يدمّر»، و«الملك يبقى مع الشرك، ولا يبقى مع الظلم»!!.

وقد عدّه الله تعالى أظهر الأسباب لتدمير الأمم والشعوب والدول، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ..﴾ [يونس: ١٣].

---

(١) انظر تفسير روح البيان عند تفسير الآيات الكريمة، ومختصر تنوير الأذهان، ج٢، ص٢٠٢ ومابعدها.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤] .

فكان (الظلم) هو أبرز سبب لإهلاك قوم نوح عليه السلام بعد هذه القرون المتطاولة من الدعوة، والتكذيب، وكانت البشرية في مطلع حياتها لا تزال قريبة من الفطرة، فانظر كيف دمرها الظلم والبغي، والطغيان؟! ثم كيف ابتلعهم الطوفان؟! وما هو من الظالمين ببعيد في كل مكان وزمان!!

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: ١٠٢]

إن الأمم قد تكون آمنة هادئة، حتى يظهر فيها المستبدون الظالمون، المحرضون على الشر، المعتدون على حقوق الغير، وحرمات الناس من رعاياهم، أو من جيرانهم في الأقاليم، والأمصار، فإذا خنع الناس أمامهم اشتدوا في الإفك، وامتدوا في الباطل، وصاروا قوة قاهرة مسيطرة، فتجر المجتمع كله إلى الدمار والهلاك، سواء بتكذيب الأنبياء، أو بإشعال الفتن والحروب، أو بمصادرة الحريات، وقتل الحرمات والكرامات، لذلك جعل الله هذا الظلم سبب الأذن بقتال الكفار بعد طول الصبر فقال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩].

أبيض

الفصل الثالث

حــوار الرسل والأمم

تمهيد:

لقــد أحــاط الله بكل شيء علمــا، وأحـصى كل شـيء عـددا، لذلك جـعل معـجـزة الرسـالة الخاتمـة كتـابا يتـلى على الناس: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [**الفرقان** : ٦].

ولقـد ضـمنه الله أسـرار الوجـود، وحقـائق الاجـتمـاع البشـري، وطرائق التـعامل الإنسـاني، وأنواع الحـوار بين الأفـراد والمجـتمـعـات، وأصـول الـدعـوة الهـادية، ومـا وراء ذلك من ألوان الخطـاب، والجـدل، والنقـاش، والمراء، كل في موضعه: ﴿ **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [**الحجر** : ٢١].

وفي الأثر الشـريف (فـيـه نبـأ مـا قـبلكم، وخـبـر مـا بعـدكم، وحكم مـا بينكم..)(١).

والقـرآن الكريم يقـرر أن رسـالـة الرسل هي حـجـة الله على عـبـاده في الدنيـا والآخـرة، ثـم هـي ضـرورة الضـرورات لإنقـاذهم من ضـلال الدنيـا، ومن عذاب النار في الآخرة.

لذلك توسـع القـرآن الكريم في عـرضـهـا، وبيـان حقـائقـهـا، والتنبـيـه على دقـائقهـا، وكيف أداهـا الرسـل عليهم السـلام، وكيف تلقـتهـا الأمم، لتكون زادا للدعاة، وعبرة للناس إلى آخر الدهر، يجـد فيها كل جيل لونا من الهدي الذي يأخذ بيده، وصدق الله العظيم:

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**يوسف** : ١١١].

---

(١) رواه الترمذي والدرامي وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، وهو حديث حسن.

وسنأخذ من هذا الفيض القرآني ما يتصل بموضوعنا، لضرورته في فهم قضايانا المعاصرة، ومشكلاتنا الحاضرة، على النحو التالي:

١- الإنسان المعلَّم :

لما خلق الله آدم عليه السلام شرفه وكرمه، وعلمه الأسماء كلها، وأفهمه معانيها، وأعطاه البيان، ووهبه الحواس، وزوده بكل ما يلزمه من خصائص وغرائز تناسب حياته الجديدة في الأرض.

٢- الدين القيم:

وكان في مقدمة هذا التعليم والإعداد أن وهبه الدين القيم، فطرة في النفس، وتفصيلا من الوحي، فنشأ الإنسان مكتمل العقيدة والدين، عالما بمعبوده وبصفاته العليا، وأنه الخالق، الرازق، المالك، العليم، الحكيم، القوي، القادر .. الخ.

وقد جاء الوحي الإلهي من أول الطريق بما يناسب الروح والمادة معا، لأن الإنسان خلق منهما، ولكن في جانب الروح لم يتركه للتجارب وإنما علمه الحقائق مباشرة، وفي جانب المادة أعطاه ما يناسب حياته يومئذ، وترك له الأمر يجد فيه ويجتهد بالعقل والتجارب ليقيم ما يصلح حياته، ويصنع حضارته تدريجا واجتهادا كما قررنا ذلك بالتفصيل سابقا.

٣- الإنقاذ الإلهي:

ولما انتشر الناس في فجاج الأرض، وقعوا فيما حذرهم منه ربهم، فانحرفوا عن الهدى الإلهي، وأعرضوا عن ذكر ربهم، فذاقوا المشكلات والمهلكات، وكان فضل الله تعالى يتبدى عليهم دائما بإرسال رسول بلسان قومه ليبين لهم، ويردهم إلى الإسلام الذي بعدوا عنه، لا يسألهم أجرا، ولم يستعل الرسل على أحد بنسب أو إصطفاء، وكان عامة أتباعهم الضعفاء، ولم يجدوا حماية من الزعماء والرؤساء، بل ناصبوهم العداء، فصبروا عليهم السلام طويلا على ما كذبوا وأوذوا.

وكان من فضل الله أن حفظ للأجيال تفاصيل ما جرى بينهم وبين أممهم، من دعوة وحوار، وجدال ومراء، وافتراءات وشبهات، كانوا يردون عليها بحقائق الوحي الإلهي، فكان ذلك عبرة وتذكرة، وزادا للدعاة وللمؤمنين يستضيئون به في معاركهم مع اللاحقين من المنحرفين عن الحق، وهي معارك ممدودة عبر التاريخ البشري إلى يوم القيامة.

٤- نماذج من الفريقين:

يعرض القرآن الكريم نماذج من الحوار والدعوة والبلاغ في النبوة الأولى: (آدم، نوح، هود، صالح ..) ومن النبوة الوسيطة: (من إبراهيم إلى عيسى) عليهم السلام أجمعين، ثم يعرض النموذج الأوفى من النبوة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ.

ويأتي مع كل بمواقف الأمم، وردود الرؤساء والطواغيت، ومحاولاتهم الدائبة لدحض الحق، ومنع الرسول من البلاغ والدعوة.

وحين نتأمل النماذج القرآنية إجمالاً، نجد عجبا، متكررا عبر الأمم، والعصور:

نجد في جانب الرسل عليهم السلام:

الأدب الجم، والنصح الخالص، والدعوة الهادية، والبلاغ الراقي، والصبر الجميل الطويل، والرد المهذب في أحرج المواقف، وبكل ذلك جاء القرآن الكريم تفصيلا.

ونجد في جانب الأمم:

الإنكار والتكذيب، والسفة والافتراء، والتطاول والطغيان، والتهديد والتعذيب والعدوان، جمودا على إرث الأولين.

إن دعوة الرسل عليهم السلام ليست بدعا من القول، ولا هزلا من الكلام، وإنما هي دعوة لأحق الحقائق، من التوحيد والتعبيد لله الواحد القهار، ومن الإيمان بالبعث والنشور، ومن وجوب (الإسلام) لله في كل شئون

الحياة. ونبذ هذا العار البشري المتمثل في عبادة الأصنام، والأحجار، والأشجار، والدواب، والكواكب .. ثم الكف عن المظالم والفساد في الأرض، ونبذ الفواحش والموبقات!!

وإن رد الأمم يتمثل في التمرد على الله تعالى، والاعتصام بكل ما هم فيه من ضلال مبين، والسخرية من الدعوة الهادية، والتحرش الدائب بالأنبياء والضعفاء الذين آمنوا بهم، والمحاولة الدائمة لإسقاط القداسة عن المعصومين والمصطفين الأخيار، ورميهم بكل إفك وكذب وبهتان!!

وفي آية جامعة يوجز القرآن الكريم هذا الداء البشري:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥] .

ويقول سبحانه وتعالى مستنكرا هذا الموقف المتكرر من الأمم بلا اتفاق سابق عليه، ومبينا علته وسببه وهو (الطغيان) الدائم في نفوس الطواغيت:

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾ [الذاريات:].

وهؤلاء الطغاة من زعمائهم وكبرائهم يتصدون لدعوة الرسل حفاظا على مصالحهم الذاتية أو الطبقية، واستبقاء لتبعية جمهور الأمة لهم، أو استكباراً واستعلاء في الأرض بغير الحق، ويسوقون ألوانا من المعاذير، والمبررات، والأكاذيب ليستخفوا أممهم وأتباعهم، ومن يؤمن منهم بالرسل يجعلونه عبرة للآخرين بما يصبونه على المؤمنين من جرائم النكال، والتعذيب بل كانوا يصبون العذاب على الرسل ذاتهم، بالنفي تارة، أو بالتهديد بالرجم، أو السجن، أو القتل، أو الحرق كما فعلوا بإبراهيم عليه السلام، لولا أن نجاه الله من النار.

ويأتي في النهاية القصاص الإلهي العادل الباتر، فيهلك الله تعالى المستكبرين، وأشياعهم من المستضعفين، وينجي الله المؤمنين، ثم تعود

القصة، وتتكرر المأساة مع رسول جديد وكأنهم لا يتعلمون، ولا يعقلون:

وكأن الذي مضى لم يأت بعد فيستأنف الجناة الجناية!!

وما أبلغ وأوجع عبارات القرآن الكريم في هذا الصدد:

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يس:].

٥- مشاهد تفضيلية وتاريخ مكرور:

ولقد كان من الإعجاز القرآني الباهر أن قص علينا مشاهد تفصيلية عن دعوة الرسل، ومواقف الأقوام، تحمل لنا حقائق التاريخ الوثيق، وتعطينا أبلغ الدلالات عن موقف كل فريق، في فجر التاريخ البشري، وكأن القرآن يحدثنا عن الصورة الحاضرة، التي لا تزال - رغم القرون - هي هي في خطوطها الأساسية، وإن تغيرت - فقط - الأسماء، والأزياء، والصور، والأشكال!!

ومن ذلك على سبيل الإيجاز:

١- أرسل الله تعالى شيخ الدعاة، الصبور الشكور، (نوحا) عليه السلام إلى البشرية بعد أن استقرت أجيالها في الأرض، وأقامت حضارة عظيمة بما أعطاهم الله تعالى من العلوم والخصائص والمعارف الوهبية (كالدين والأخلاق في أرقى صورهما) أو الكسبية القائمة على التجارب، والتعلم، وغيرهما مما أودع الله في الإنسان من خصائص العقل، والبيان، وسائر النعم.

ولكنهم كفروا بخالقهم العظيم، وعبدوا الأصنام، واتبعوا الشيطان، فبعث إليهم (نوح) عليه السلام، ليردهم إلى الإسلام الذي تعلموه من أبيهم آدم ومن بعده، فتلطف في دعوتهم غاية التلطف، وعلمه الله تعالى أن يراعي جدة الدعوة عليهم، وأنهم الطلائع الأولى الذين لم يتعاملوا مع الرسل من قبل، وليس لهم سابقة تجربة أو معرفة لرسالات الله عز وجل، لذلك أمره

بطول الصبر، وكمال الجهد رحمة بهذه الأجيال الأولى..

وقد جاءهم عليه السلام بكل طرق الدعوة الصالحة: ترغيبا وترهيبا، وليلا ونهارا، وإعلانا وإسرارا، واختار لهم أحكم القول، وأطيب اللفظ، فلم يجد إلا السوء والنكران، وأغلظ الكلام، وأفظ الأفعال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴿١٤﴾ ﴾[نوح].

ولقد أفاد وأجاد، ولفت أنظارهم إلى دلائل الحق في السموات والأرض، وظل على هذا ألف سنة إلا خمسين عاما، يحتمل منهم كل صنوف السخرية والأذى، والتهديد والوعيد، والتكذيب والتعذيب، ثم قال في أسى عميق: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴿٢٥﴾ ﴾[نوح].

وهكذا استحق هؤلاء الطواغيت غضب الحق، فدمر الطوفان حضارة البشر الذين تعبوا قرونا في إقامتها، وعادت الأرض من جديد تستأنف جهودا مضنية، بنفر آمنوا بنوح ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

٢- ثم بارك الله لهؤلاء المؤمنين الناجين فتنا سلوا، وتكاثروا، وأقاموا حضارتهم بفضل الله مرة أخرى بعد جهود مضنية، وزرعوا، وثمروا، ولكن الآفة البشرة تكررت بأفدح مما سبق، حين نشأت في جنوب الجزيرة العربية القبائل العملاقة التي اشتهرت باسم (عاد) فغرتهم نعم الله، وكفروا بالله، وعبدوا الأصنام وأفسدوا في الأرض، وأشاعوا البغي والظلم،

فبعث الله تعالى لهم رسولهم الأمين (هوداً) عليه السلام، ولم يتعلم طواغيت قومه الدرس الأليم رغم تذكير نبيهم لهم بأنهم (خلفاء قوم نوح)، بل ربما أربوا على ضلالات السابقين حين ردوا على نبيهم في وقاحة:

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف:].

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ ﴾ [فصلت : ١٥].

وأهلكهم الله بالريح العاتية، ولم تغن عنهم قوتهم، ولا جناتهم وعيونهم.

٣- وتكرر المشهد الأليم في (ثمود) خلفائهم، نحاتي الجبال، ذوي الحضارة الفارهة، في شمال الجزيرة العربية حين كفروا بربهم، وأفسدوا في الأرض وفي قوم لوط حين فسقوا عن أمر ربهم، وأشاعوا الفاحشة في أوساطهم، وفي قوم شعيب المطففين، ثم في الفراعنة الجبارين، حضارات تقوم وتزدهر، ثم تكفر بربها، وتأبى إلا الإفساد والظلم، فيحق عليهم القانون الإلهي الصارم:

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠].

والخلاصة هنا:

(أ) أن هذه أمم وشعوب أو دول وحكومات ذات حضارة باهرة، ولهم جنات وعيون، وكنوز ومقام كبير، ولديهم قوة وسلطان، وصناعات وفنون، يقيمون بها القصور، وينحتون من الجبال بيوتا فارهين، ويبنون بكل ريع آية يعبثون، ويبنون بها الصروح (والمسلات)، والتماثيل والصور .. الخ.

ولكنهم استكبروا على رسالات (الإصلاح) الديني والأخلاقي، ورفضوا دعوة الرسل الهداة، الأساة، الناصحين!!.

(ب) أن دعوة الرسل كانت هي الحق المبين، والإنقاذ المتفرد للناس، وكان الرسل هم المثل البشري الأعلى في الدعوة الصحيحة، والأدب الراقي، والخلق الأسمى، ومع ذلك لم تفلح وسائلهم في إنقاذ الناس من العذاب الماحق، لإصرارهم على تبعية الباطل.

(ج) وسبب ذلك هم أولئك الطواغيت والجبابرة من زعماء الأمم وكبرائها، الذين واجهوا الرسل بغاية الضراوة والافتراء والسخرية والاستهزاء، واستطاعوا استغفال (جمهورهم) واستهواء الأقوام، واستخفافهم، فاتبعوا الباطل حتى أهلك الله الظالمين ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف].

(د) وفي الجانب الآخر كان الرسل عليهم السلام دعاة إلى الحق، لا يملكون قوة ترهب أو ترعب الناس، ولا يملكون سلطانا أو مالا يؤثر في الأمم، وإنما هي الدعوة المجردة، والحق المبين، والحوار الأمين، والمناقشة بالحجة والبرهان، وتذكير الناس بأيام الله، ونعمه التي أسبغت عليهم.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن أيد رسله بالبينات القاطعة، والمعجزات الخارقة، حتى تتعادل الدعوة مع جبروت القوة في عقول وأسماع وأبصار الذين يريدون الحق والإيمان.

ولكن اطردت جهالة الرؤساء في تكذيب الرسل، ولم يحفلوا بهذه الخوارق الحسية الهائلة، وكذبوا بها في وقاحة مزعجة، وجادلوا بالباطل رغم وضوح كذبهم كما قال تعالى عنهم:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

﴿أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وهذه قضية بالغة الخطر والأثر، ينبغي أن تفهم على وجهها الصحيح، فإن الأمم السابقة قد فهموا دعوة الرسل، وقامت عليهم الحجة، ولم تكن نتائج الحوار مع الرسل محل شك منهم، ولكنهم عاندوا على علم، ورفضوا الحق جحودا واستكبارا لا جهلا، وهذه معضلة بشرية مكرورة!!

يقول المفسرون: (والحال أنهم كانوا ذوي بصيرة عقلاء، متمكنين من النظر والاستدلال، ولكنهم لم ينتفعوا بعقولهم، ولا بأسماعهم وأبصارهم، بل عطلوا ذلك كله عمدا، فاستحقوا العذاب المهين).

(هـ) لذلك اقتضت حكمة الله أن يمنع هذا النمط في الرسالة الخاتمة، فلا يستجيب لاقتراحات المشركين المعاندين بطلب الخوارق الحسية، لأنهم لم ينتفعوا بها طوال التاريخ النبوي السابق كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ [الإسراء: ٥٩].

وأي آية تلك التي تخرج من الصخر - أمام أعينهم - ناقة ضخمة فخمة، تنبض بالحياة والخير، وتدر لهم لبنا غزيرا غير معهود؟! فكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام، واستخفوا بنذير الله لهم، فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فعاجلهم عذاب الاستئصال المبيد:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف:].

إن كل إنسان عاقل مفكر في الأرض ليقف حائرا في أعقاب القرون، وفي أدبار هذه الحوادث الجسام، يسأل عن هذه العلة المهلكة؟ وعن أسباب رفض هذه النصيحة الخالصة؟ التي عالج بها المرسلون أممهم، قبل أن تأخذهم سنن الله الصارمة؟!

إنها - كما قلنا - الآفة المكررة من الظلم والبغي، والفساد والإفساد، أو ذلك الاستكبار الأرعن، أو الطغيان الأحمق الذي سد على الرؤساء كل منافذ الخير، وقادهم وأممهم إلى مصارع السوء الأليم، وصدق الله العظيم:

﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً ﴾ [الفرقان: ٢١].

على ما نفضله في الفصل التالي إن شاء الله تعالى..

الفصل الرابع
الرسالة الإلهية الخاتمة

هذا عنوان جليل، لأجلّ رسالة، وأعظم دعوة في التاريخ. وهي خليقة بالبحث، والفهم، والدراسة المستوعبة، لأنها طريق السعادة الخالصة في الدنيا والآخرة، كالمثل الذي ضربه الله في القرآن:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

وقد جعل الله لهذه الرسالة أسسا تقوم عليها، وتضمن لها التفوق والامتياز، والبقاء والاستمرار، والحجة البالغة، والبلاغ المبين إلى يوم الدين.

وسنتحدث عن أربعة من هذه الأسس على الترتيب التالي:

(الرسول الخاتم - الدين الكامل - الكتاب المعجز - الأمة المستخلفة).

وسنتناول كلا منها بما يتناسب مع موضوعنا عن حوار الحضارات والثقافات، ومع الإيجاز قدر المستطاع إن شاء الله:

الأساس الأول: الرسول الخاتم:

أرسل الله تعالى رسوله محمدا ﷺ في ختام الرسالات الإلهية للبشر، وجعله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحدد له مهمته الجليلة فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

فهو شاهد للأمم وعليها بأنه بعث بالحق المتفرد، وهو المبشر بكل خير، ونذير المخالفين رجاء أن يعودوا إلى ربهم، وهو داعي الأمم إلى الله في

وحدانيته ورسالته وشريعته، على نور وعلم مبين، ومتلبسا بالرحمة المهداة في كل شأنه، حتى في نذارته للعصاة قبل الممات، وقد دفعت الأمم الشاردة طوال التاريخ ثمنا باهظا حين نزل بهم عذاب الاستئصال في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخرى.

وقد جعله الله لهم أمانا من هذا العذاب المبير في الدنيا، وألزمه في مقابل ذلك مواصلة الدعوة والبلاغ، بالحجة والبرهان، والحوار والبيان، وبما علمه من القرآن.

ولقد كان من أعظم حوادث التاريخ الديني قديما أن أنزل الله تعالى (التوراة) فيها هدى ونور على رسوله الكريم موسى بن عمران، فصارت علامة فارقة في الأرض بعد هلاك القرون الأولى الكافرة، وجمع حولها بني إسرائيل، وأصبح للحق معسكر واضح متميز، يبعث الله تعالى فيه الرسل والأنبياء بالحق والبيان.

ولكن بنو إسرائيل ضلوا ضلال مبينا، وشاقوا الله ورسله، حتى بعث فيهم عيسى بن مريم في نهاية المطاف، وأنزل عليه واحدا من أعظم الكتب الإلهية وهو (الإنجيل).

وكان من شؤم اليهود أن كذبوه، وقالوا فيه وفي أمه بهتاناً عظيما، فنشأت النصارى فرقة متميزة من اتباع المسيح عليه السلام، على التوحيد الخالص، والحق المبين.

وما لبث النصارى أن اختلفوا وتفرقوا وضلوا في أصل الدين ضلال مبينا، حتى عبدوا المسيح وأمه، وزعموه إلهاً أو ابن الإله ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾ [**الإسراء**: ٤٣].

وبدت الأرض كلها في ذلك الوقت كالحة مظلمة.

فأين جهود الأنبياء والمرسلين التي بذلوها طوال التاريخ؟!

وأين ما أعلنوه من التوحيد الخالص، والتجرد المطلق، والإسلام المتفرد

لله رب العالمين؟

أين ملة إبراهيم الحنيف المسلم محطم الأصنام؟! وأين ملة أبنائه التي أعلنها يوسف عليه السلام وهو في سجن الفراعنة؟!

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨].

لقد خان معظم اليهود والنصارى التاريخ النبوي الشريف، وغدت الأرض بعد عيسى عليه السلام يومئذ في معسكرين مظلمين:

الأول: جمهور أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وكان عندهم الحق في كتبهم قبل تحريفها، لكن واقعهم أبعد ما يكون عن دين الحق الإلهي الذي جاء به المرسلون، بل كانوا فتنة للذين كفروا حين حجبوا عنهم الحق، وزيفوا عليهم الدين، ولبسوا عليهم الطريق الصحيح.

الثاني: المشركون من المجوس، وعباد الأصنام والأحجار والصابئون عبدة الكواكب، وأهل الفسوق والانحلال الذين لا يؤمنون بشيء في كل الأمم والشعوب

وكان الله تعالى بعباده رءوفا رحيما:

فهيّأ الأرض لحدث جليل وأمر خطير، حين اختار محمدا ﷺ للرسالة الخاتمة.

رسول كريم أمين، جمع الله تعالى له كل فضائل الرسل والأنبياء، ابتداء من الرسالة الشاملة الكاملة، التي بعث بها. وانتهاء بالآية الخارقة التي ساقها له وهو الكتاب المعجز.

واختصاصاً بالصفات الخلقية الباهرة التي جمعها فيه من الأمانة، والصدق، والصبر، والحلم، والرحمة، وبالإجمال ما أقسم الله تعالى عليه في كتاب: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤].

ولذلك جعل رسالته عامة للبشر جميعا في زمنه، وباقية خالدة للناس

جميعا من بعده إلى يوم القيامة.

إن النبوة - كما قلنا - مرت بثلاث مراحل:

١- النبوة الأولى: (من آدم، ونوح، وهود، وصالح، وغيرهم) عليه السلام.

٢- النبوة الوسيطة: (من إبراهيم إلى عيسى وما بينهما) عليهم السلام.

٣- النبوة الخاتمة: وقد أعد الله لها رجلا عظيما، يقوم وحده - بتوفيق الله - مقام الجمّ الغفير ممن سبقوه، وقد كلف بحمل هذه الرسالة الباقية وجعلت له أمة. ممتدة في الزمن لتحمل هذه الرسالة للعالمين بعد ختم النبوات، ولذلك كان القرآن ممتدا بعده، والأمة ليظل صوت النبوة ممدودا.

ونحن هنا لا نتحدث بالتفصيل عن النبي الخاتم ﷺ، فتاريخه أشهر من أن ينكر أو يجهل، وأعظم من أن يفصّل أو يكرر، لأنه هو التاريخ الوحيد الذي ثلث بيقين مفصل من الأنبياء والمرسلين، فضلا عما جاء في الكتاب المعجز عنه، بل كان ﷺ هو الذي أحيا الله به تاريخ المرسلين السابقين بعد اندثاره وضياعه في بطون الزمان: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [**النمل**: ٧٦]. ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٣٤].

وخلاصة ما يتصل بموضوعنا أنه ﷺ ما كان يدعا من الرسل، وإنما جاء بالوحي الإلهي، والدين الجامع، لقوم غارقين في الجهالة والضلال المبين.

وقد أمر بالدعوة والبلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة. والحوار الطويل باللين والصفح الجميل، والصبر الطويل.

ولم يكن لقومه العرب براعة في شيء أكثر من الفصاحة والبلاغة والبيان، وضراوة الجدل والمشاقة والمراء، خاصة وهم شعب حمى الأنف إذا غضب، في قلوبهم حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم عزة وشقاق!!

وقد وصفهم الله تعالى، بالجدل، واللدد، وشدة الخصومة فقال تعالى:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وكان على النبي ﷺ، أن يجادلهم بالحسنى، طويلا، وأن يجاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا، وهو كتاب حجة وبرهان، وأن يصبر كثيرا على أذاهم، وأن يحسن القول والفعل في كل موطن يحاورهم فيه حرصا على هدايتهم، وتأليفا لقلوبهم، وقبل ذلك امتثالا لأمر ربه ومولاه الذي أمره مرارا بذلك، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ﴾ [النحل: ١٢٥].

بل أمره ربه ومولاه في مواقف المنازعة والمكايدة أن يمعن في الصبر الجميل، والعفو، والمعروف، والصفح، والمسالمة، والدفع بالأحسن، كما قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج: ٥]، ﴿ فَفَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ.. ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ [المزمل: ١٠].

ومع هذه الأوامر الصريحة حذر الله تعالى نبيه الكريم من عواقب الغلظة، والفظاظة، وسوء القول، خاصة بعدما أقام له دولة الإسلام، وأصبح له جنود وأنصار وسلطان، قد تغري الإنسان، أو يظنها المتعجلون مظهر الاحترام والتوقير والمهابة، قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ.. ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لذلك ظل ﷺ طوال حياته على هيئته من الفضل، والأدب العالي، ومكارم الأخلاق، مع الناس جميعا مسلمهم وكافرهم، ولم يتغير بإقبال الدنيا

عليه، بل لقد ازداد فضلا وإحسانا، وعرفانا وشكرانا، وموقفه مع أهل مكة بعد فتحها من أعظم المواقف نبلا وكرما، خاصة وهم الذين أسرفوا في التعذيب والتكذيب، والمصادرة والمطاردة، وحملوا السلاح عليه وأوقدوا الحرب ضده في كل موطن.

لقد قال لهم كلمته الشهيرة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1].

وسيرته ﷺ كلها شاهد عدل على التزام أوامر ربه التزاما أمينا، وصبره صبرا جميلا، وكان لهذا الخلق النبيل في دعوته وبلاغه، وحربه وسلمه، أطيب الثمرات والتأثير، في غلاة خصومه، فضلا عن أحبابه من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين.

ولقد آذاه رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول في عرضه، ودعوته، وأصحابه، وحكومته.. الخ.

ومع ذلك لما مرض عاده، ولما مات كفنه في قميصه، ثم صلى عليه، وبلغ الذروة العليا من الرحمة حين فهم النص القرآني: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٨٠].

فهمه ﷺ على أنه تخيير لا نهي وقال كلمته الشهيرة بما معناه: (أنا بين خيرتن قال الله لي: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ..)، والله لو أعلم إني لوزدت على السبعين غفر له لزدت عليها[2].

الأساس الثاني: الدين الكامل:

فقد بعثه بدينه الحق: (الإسلام)، وهو دين الله للبشرية في كل العصور، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٩].

والمعنى: إن الدين الذي بعثت به الرسل جميعا هو دين الله الإسلام، وقد بلغته الرسل إلى أهل الكتاب، ولكنهم ضلوا بعد أن جاءهم العلم، ظلما

---

(١) سيرة ابن هشام في قصة فتح مكة، والحديث في مسنده ضعف، ولكن الواقعة والعفو متواتران.

(٢) وردت عدة أحاديث في ذلك عند البخاري، ومسلم، وأحمد والترمذي (تفسير ابن كثير في آية التوبة: ٨٤).

وحسدا وجهلا، فبدلوا أصوله، وغيرّوا أحكامه، بل تركوا اسمه كلية، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والمعنى: أن أي دين غير الإسلام فهو باطل، مردود على صاحبه، ولن يقبل منه في الدنيا والآخرة، ثم يخسر صاحبه صفقة الأبد حين يخلد في النار. فالآية الأولى إثبات، والثانية نفي وتجريد لغير الإسلام عن عوامل الصحة والقبول، وإثبات الخسران لأصحابه.

والإسلام الذي جاءت به الرسل متفق في الإيمان والأخلاق، جملة وتفصيلا،، ثم يتفق في أصول العبادات والمعاملات، ويتفاوت - على ألسنة الرسل - في صور العبادات والمعاملات الجزئية فقط حسبما تقتضيه حكمة الله في تكليف العباد وقد أثبت الله تعالى ذلك في قوله الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقد تميز ما جاء على لسان محمد ﷺ بأمور:

أولاً : أنه خطاب موجه للبشر جميعا في كل زمان ومكان، بخلاف دعوة الرسل السابقين حيث كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة.

ثانيا: كثرة ما فيه من القواعد الجامعة، التي تندرج تحتها أفراد كثيرة، ضرورة أنه مخاطب به الناس إلى يوم القيامة، والقواعد الجامعة أنفع لهم من الجزئيات المتغيرة.

ثالثاً: أن معجزته كتاب يتلى على الناس يتضمن الرسالة، وهو في نفس الوقت دليلها، فاجتمع المدلول والدين، أو الرسالة وبرهانها فيه.

رابعاً: أن معجزته تخاطب العقل والفكر، وتقوم على الحوار والبرهان كما سنبين وفي هذا إقامة للحجة على جميع الأجيال بعد نزوله، وليس كالمعجزات الحسية التي هي حجة على أهل زمانها فقط.

وقد جاءت آيات القرآن قاطعة بكمال هذا الدين وتمامه، وعمومه وشموله، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهو رسالة الله إلى عباده، ودعوته إلى خلقه، وبلاغ الرسول إلى الناس جميعا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ثم هو موجه إلى (أهل الكتاب) قبل غيرهم من الناس، لأنهم مصدر التحريف في دين الحق، وهم الذين نسبوا إلى دين الله كل باطل وضلال، ولذلك خاطبهم بقوله الكريم: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ..﴾ [البقرة: ٤١].

ويقول تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

الأساس الثالث: الكتاب المعجز:

فكما قدمنا أيد الله تعالى كل بني بمعجزة خارقة تصدقه في دعوى النبوة، وكانت المعجزات قبل القرآن هي معجزات حسية مادية، لحسم المراء، وقطع التمادي في الجدل والافتراء، ولما كذب بها الأولون نزل بهم عذاب الاستئصال، ولم ينج منه إلا قلة من الأقوام آمنوا بينهم عليه السلام.

فلما بعث الله محمدا ﷺ، وجعله (خاتم النبيين) أعطاه معجزة المعجزات، كتابا يتلى، وحقا يقرأ، يعلم ويذكر ويستمر بعده ﷺ، يحاور أصناف الناس، ويرد الشبهات بالحجج البينات، ويدحض الظنون باليقين والدليل والبرهان، بل ويطالب خصوم الحق بإقامة أي دليل على مزاعمهم، حتى يتعلم المتقولون والمفترون الحوار الحق، والأمانة في القول، والمسئولية

عن الخطاب كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

وكما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

وفي هذه الآية الكريمة إبطال لآلهتهم المزعومة بدلائل العقل، والنقل، والحس، والتاريخ.

فقد طالبهم بإثبات أكاذيبهم بدليل حسى كالرؤية (أروني ماذا اخلقوا؟) أو بدليل نقلي من الكتب الإلهية السابقة، أو أي بقية من بقايا العلم تؤيد دعواهم، وهم عن كل هذا عاجزون، وبالتالي فهم كاذبون.

وقد حاول المشركون اقتراح (الآيات الحسية) على النبي ﷺ، وخادعوا بالوعود الكاذبة بأنهم سيؤمنون إذا جاءتهم هذه الآيات، وقد أدار الله تعالى معهم خطابا طويلا، وأمر رسوله أن يحاورهم بما ينزل به القرآن الكريم من حجج قاطعة، وأن يفضح دعاواهم الكاذبة بما يعلمه الله من أسرارهم الخفية، وإسرارهم الكفر، وإصرارهم على الباطل، وكان القرآن الكريم هو عماده في هذه المحاورات الهائلة، ذات القضايا الخطيرة الشائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

ومن هذا اللون من الجهاد بالقرآن في الدعوة والبلاغ، والحوار والبيان:

١- أنهم أكثروا من اقتراح الآيات الحسية المادية، تعنتا، ومحاولة لتعجيز النبي ﷺ أمام ضعفائهم المخدوعين بهم، مثل: إحياء الموتى، وقلب الصفا ذهبا، وإزاحة الجبال بعيدا عن مكة حتى تنبسط الأرض وتصلح للزراعة، وتفجير الأنهار، والرقي في السماء أمام أعينهم، بل بلغ من سفاهتهم أن

يقترحوا عليه: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٩٢].

٢- ورد عليهم القرآن الكريم ببيان كذبهم، وأنهم غير جادين في طلب هذه الآيات، وأنه تعالى لن يستجيب لهم لأمور:

(أ) لقد أعطى أمثالهم من المكذبين الأولين آيات بينات فكذبوا بها، واستخفوا بوعيد الله عز وجل، فأبادهم الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..﴾ [الإسراء: ٥٩].

ومعلوم أنهم عقروا الناقة: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

ورغم الآيات البينات التسع التي أعطيت لموسى عليه السلام فقد كذب بها كلها فرعون وقومه، وقالوا: ساحر مبين وكذاب.

بل إن بني إسرائيل الذين تتابعت فيهم الأنبياء والرسل انكروا رسالة عيسى عليه السلام جملة وتفصيلا رغم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.. الخ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فما الذي يدفع أو يمنع مشركي العرب إلى أن يكونوا استثناء من هذه الظاهرة البشرية العابثة، سواء في التكذيب بها، أو السخرية منها، أو الجراءة الفاجرة عليها؟ خاصة مع قيام سنة الله في إبادة المكذبين واستئصالهم؟ كما قال تعالى عقب هذه القصص: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣].

وكما قال تعالى مكذبا لهم في دعواهم:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ..﴾ [الأنعام: ١١١].

(ب) أن الله عز وجل لم يدع رسوله من غير معجزة مؤيدة، بل هي معجزة فريدة في لفظها ومعناها، وأسلوبها وخطابها، وأثرها وتأثيرها كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ولو كانوا جادين حقا لكفتهم معجزة القرآن لأنها جامعة شاملة، وقد عجزوا عن الإتيان بمثلها، أو بسورة من مثلها، كما قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

(ج) ثم إن معجزة القرآن تحاورهم وتناقشهم، ولا يستطيعون إبطالها بالعقر، أو بالحرق، أو بالتكذيب والتعذيب، بل هي ماضية مستمرة، وفي ذلك نجاة لهم من الاستئصال وهذا ما يشير إليه ختام الآية السابقة (لرحمة وذكري لقوم يؤمنون)، وهذه حجة عليهم إن أرادوا الهداية حقا لأن رسولهم هو رحمة لهم، لا عذاب عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

(د) وهكذا سد القرآن الكريم عليهم المنافذ، وأقام عليهم الحجة، وأفحمهم بالدليل والبرهان، فانقلبوا إلى ألوان من الهزل والهذيان مثل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ومثل ما قصه الله عنهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن

قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس].

(هـ) وهكذا كان هذا الحوار القرآني المتتابع، والذي يتنزل على رسول الله في كل وقت، وحسب الوقائع والأحداث - كان ذلك مزعجا لهم مبطلا لشبهاتهم، رادًّا لأكاذيبهم وألاعيبهم، لذلك اقترحوا اقتراحا مثير خبيثا يدل على شراسة الجدل، ومحاولة استخدام الكتب السابقة في الخصام والمراء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، أي يقترحون نزول القرآن دفعة واحدة كالكتب السابقة، ليستريحوا من الملاحقة اليومية، التي تفحمهم، وتظهر عوار حوارهم، وخطايا ظنونهم.

وقد رد الله تعالى عليهم بأن نزول القرآن الكريم منجما تم لحكم عظيمة جليلة: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وخلاصة المعنى:

أن نزول القرآن مفرقا على مدار الأيام والشهور والأعوام أتاح:

أولاً : تقوية قلب الداعية الأول ﷺ - في مواجهة هذه الحملات الشركية العاصفة من الجدل، والمراء، والشبهات، والأكاذيب - بما ينزله الله عليه عقب كل قول، أو موقف من البشارة والتأييد له، أو النذارة والوعيد لخصومة، أو كشف الحقائق والأسرار له ﷺ.

ثانياً: مدّ فترة نزوله طوال سنوات البعثة، وإعطاء الفرصة لقراءته في تؤده، وتمهل، وتأنٍ، لأنه أيسر في الحفظ والاستيعاب، وأعون على الفهم والتدبر، وأسهل في الدعوة والبلاغ، وأجدر أن يعيه القارئ والسامع بمتابعة حواره وأسراره، خاصة وهو خطاب الرب الأعلى لعباده، ينبغي أن يتلقوه بالإجلال والإقبال.

ثالثاً: وضع الحقائق مكان الأباطيل المقترحة، أو الشبهات الطارئة من

الكفار، وهي أشياء تتكرر منهم يوميا، فلو نزل دفعة واحدة لما تحقق الرد، والبيان، والتفصيل، الذي تحقق بنزول القرآن منجما يبين (الحق) كالتوحيد، والبعث، وصدق الرسول، وربانية القرآن، عند كل مناسبة، أو بعد كل سؤال.

(وأحسن تفسيرا) في كل موطن يلتوي فيه الكفار، ويحتاج الناس فيه إلى البيان والإيضاح في قضايا الغيب، أو خفيات الحياة والكون، فإذا ضل الناس في قضية (الخلْق) ونسبوه إلى الطبيعة أو الصدفة جاء القرآن بأحسن تفسير للمعضلة، فبين قدرة الخالق الواحد، وكيف خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، وأجرى أنهارها، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سموات في يومين .. ولا شك أن القول بنسبة الخلق إلى الخالق القادر القاهر أحسن تفسيرا وبيانا من القول الجدلي العابث بنسبة الخلق إلى الصدفة ونحوها.

ونسبة خلق الإنسان إلى الله خلقا ابتدائيا مكرما مشرفا كما قرر القرآن، خير بما لا يقاس من لغو البشر، أو الفلاسفة، وكهنة الحضارة المعاصرة في نسبته إلى نظريات النشوء، والارتقاء من وحيد الخلية: (الأميبا)، ثم التطور والانتساب إلى القردة وأمثالها.

وما يستوي وحي من الله منزل وقافية في العالمين شرود

معجزة المعجزات:

لذلك كله نجد أن القرآن العظيم هو المعجزة الكبرى، والخارقة العظمى، والحكمة الإلهية في ختام الرسالات الربانية، لتبقى حجة الله تعالى ممدودة موصولة بعد ختم النبوات، وهو يغني عن كل معجزة، ولا يغني عنه شيء، بل لقد ضمنه الله آثار كل المعجزات السابقة في الجانب الروحي المعنوي، وهو أقوى أثرا؛ وأبقى وأنقى من الجانب المادي، ولو صلح الجانب الروحي المعنوي في فرد أو جماعة لانقادت له المادة الحسية، ولتفجرت في جنباتها بركات

الروح، كما قال تعالى على لسان نوح لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وهذا عين ما أجاب به القرآن العظيم على مشركي مكة حين اقترحوا على النبي ﷺ أن يسير به الجبال عن مكة، وأن يشق به الأنهار، وأن يحيي به أمواتا منهم يشهدون له بالرسالة، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ..﴾ [الرعد: ٣١].

والجواب محذوف تقديره: (لكان هذا القرآن) وصدق الله العظيم: فلقد أخرج العرب من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وورثهم حضارات زاهرة ذات جنات وأنهار وبحار، وأحيا مواتهم وموات الأمم التي حملوا إليها نور الإسلام .. كل ذلك وأكثر منه كان بفضل الله، ثم بفضل القرآن العظيم الذي هداهم الله به من الضلالة، وعلمهم به من الجهالة، وفتح به قلوبا غلفا، وعيونا عميا، وآذانا صما والتاريخ كلّه شاهد صدق على ذلك، وهذه كلمات الله أصدق شهادة، وكفى بالله شهيدا.

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك أصدق إشارة، حيث وازن بين المعجزات الحسية العظيمة التي سبقته وبين القرآن الكريم فقال:

«ما من الأنبياء من بني إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(١).

والمعنى أن الآيات الحسية هي خوارق إلهية يظهرها الله تعالى على يد أنبيائه عليهم السلام فيؤمن المؤمن بها لعجزه الكلي أمامها، أي يؤمن وهو مغلوب القدرة، مسلوب الإرادة أمام قهر المعجزة الربانية، كما خر السحرة ساجدين، أما القرآن فيحاورهم، ويقيم لهم الأدلة وينتزع منهم الإيمان بعد الاقتناع، ومثل هذا الإيمان يكون أكبر ثباتا، وأكثر عددا، ولله الحكمة العليا في كل حين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأساس الرابع: الأمة المستخلفة في الأرض:

لقد بعث الله تعالى رسله طوال التاريخ البشري دعاة هداة إلى دين الله تعالى، وآمن مع كل رسول فريق من الناس، وضل أكثر الأولين، وكانت العاقبة للمؤمنين، فيرثون الظالمين، ويخلفونهم في الأرض، بإذن الله وفضله.

سنة الله في الاستخلاف:

وهي سنة إلهية قديمة ومكررة كما فصلها القرآن الكريم:

١- فكان الإنسان ابتداء خليفة في الأرض، مكان الأجناس الظالمة التي أهلكها الله تعالى.

٢- ثم جرت سنة الله تعالى في القرون الإنسانية ذاتها، حين يهلك الله الظالمين، ويستخلف قرونا آخرين قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ من قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾** ﴾[**يونس**].

ولقد فصل الله تعالى قصص الأمم منذ نوح، ثم هود، وصالح، ومن بعدهم، وكيف استخلف المؤمنين مكانهم كما بينا سابقا.

٣- ولقد هاجر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ليقيم الله به قاعدة النبوة الوسيطة، إلى أن بعث موسى بن عمران، وأنزل الله عليه أعظم الكتب الإلهية قبل القرآن ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [**المائدة**: ٤٤]، بعد أن أهلك القرون الأولى الظالمة، وكان ذلك تمهيدا هائلا لاستخلاف بني إسرائيل في الأرض، ليقيموا نموذجا للأمة المسلمة في الأرض، وقاعد تمثل الدين الإلهي بين الناس.

وقد مكّن الله لهم في الأرض، ورزقهم من الطيبات، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وكانت تسوسهم الأنبياء، وبالاختصار حسب النص القرآني: ﴿**وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [**المائدة**: ٢٠].

ولكنهم خانوا العهد والميثاق، وكفروا بالله والمرسلين، وقتلوا الأنبياء بغير حق، واستحلوا الفواحش والموبقات، وقالوا أشنع كلمة في تاريخ النبوات: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] فأذاقهم الله تعالى خزي الدنيا، وسلط عليهم الأعداء ليتوبوا، فما زادهم إلا كفرا وفسوقا، حتى قالوا في آخر أنبيائهم وفي أمة بهتانا عظيما، وحينئذ سلب الله منهم شرف الإمامة في الدين، ونحّاهم عن الاستخلاف في الأرض إلى آخر الدهر، وضرب عليهم الذلة والمسكنة!!.

٤- ثم استخلف الله من بعدهم أتباع عيسى عليه السلام، وجعل لهم دولا وسلطانا بعد ضعفهم، ومدهم إلى أمم كبيرة خارج بني إسرائيل، ولكن لم يلبثوا إلا قليلا حتى أفسدوا الدين الإلهي، وضلوا ضلالا مبينا، وحرفوا (الإنجيل) الذي نزل على نبيهم الكريم عيسى بن مريم، بل كانوا أضل أمة في تاريخ النبوات حينما عبدوا المسيح، وزعموا الصلب، واتخذوا مع الله آلهة يعبدون، فكان لابد من تنحية الباطل، وإظهار الحق الإلهي في دورة من دورات الاستخلاف الكبرى في الأرض.

٥- وهكذا تتابعت سنن الله تعالى لتخرج البشرية من الظلمات إلى النور فبعث محمد ﷺ، وأخرج معه أمة جديدة ليكونوا قاعدة الحق في الأرض، وحملة لواء الوحي الإلهي بين الناس. وكان هذا أعظم استخلاف في تاريخ النبوات المباركة، وزوده (بخصائص كبرى) تضمن استمرار رسالة الله محفوظة مصونة إلى آخر الدهر.

الشروط الإلهية للاستخلاف:

إن الله تعالى هو الخالق الأعلى، والكون كله ملكه، والخلائق جميعا عبيده، وهو لا يظلم ولا يحابي أحدا، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب ولا صهر أو قرابة، ولذلك جعل للاستخلاف شروطا معلومة منصوصة عبر التاريخ البشري كله، فمن استجمعها استحق الاستخلاف بسنن الله تعالى، ومن نكص عنها، أو نكث بها نحاه الله عن مقام الإمامة والريادة، وحرمه

شرف الاستخلاف لإقامة الحق الإلهي.

وقد زعم بنو إسرائيل أنهم شعب الله المختار لذاته، وأنه فضلهم تفضيلا (عنصريا) أو (قوميا)، وهذا زعم باطل، مخالف لصريح الكتب السماوية وخاصة القرآن الكريم، وقد رد الله تعالى على أهل الكتاب زعمهم فقال: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [**المائدة** : ١٨].

ولقد كان موسى بن عمران عليه السلام أكبر أنبيائهم، وأمره الله تعالى أن يعمل بوحيه وشريعته هو وقومه أمرا جازما مؤكدا: ﴿ **وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ [**الأعراف** : ١٤٥].

وقد عدد الله تعالى الشروط التي فرضها على بني إسرائيل، وحذرهم من عواقب التفريط فيها: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [**المائدة** : ١٢].

ثم لعنهم الله لعنا مبينا واستخلف غيرهم حين نقضوا عهد الله وميثاقه كما قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ . .** ﴾ [**المائدة** : ١٣].

ونفس المعيار طبق على خلفائهم الألداء في الآية التالية مباشرة: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . .** ﴾ [**المائدة** : ١٤].

وحين أراد الله تعالى أن يستخلف المسلمين، فصل لهم شروط الاستخلاف تفصيلا، وألزمهم بها إلزاما، وحذرهم من مصارع السابقين الذين استخفوا بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا**

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فهذا وعد إلهي صادق باستخلاف أمة الإسلام كما فعل مع السابقين، وبشروط معلومة: (الإيمان - وعمل الصالحات - وأفراد الله تعالى وحده بالعبادة - ونبذ الشرك - والاستقامة على دينه الذي ارتضاه لهم).

وقد وفت الأمة بشروط ربها جل وعز، فاستخلفها، ومكن لها في الأرض، وأظهرها على الأمم جميعا، وقهر بين يديها طواغيت العرب والفرس والروم بما كان أعجوبة التاريخ كله.

الأمة الإسلامية: تشريف وتكليف:

لقد شرف الله رسوله الخاتم أعظم التشريف، حين اختاره لأعظم المهمات في الرسالة الإلهية الخاتمة، وأتم عليه فضله العظيم، وقيض له أصحابا كراما يحملون معه هذا الحق للناس.

ولذلك كانت هذه الأمة منحة إلهية في أصل نشأتها، شرفها الله لتحمل فضله للعالمين، ولتبذل جهدا مبرورا في طاعة الله عز وجل كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ..﴾ [الحج: ٧٨].

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ..﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالجعل، والاجتباء، والإخراج مسند في الآيات إلى الله تعالى، (والاجتباء) هو مطلق الاختيار والاصطفاء من الله تعالى قبل تقديم عمل، أو سبق بذل، أو استحقاق ذاتي، وإنما هو محض فضل من الله تعالى، يمنحه لمن شاء ممن اختارهم للنبوة، أو ما يليها من مقات الفضل، مثل ذلك الشرف الذي منحه الله للأمة الإسلامية، لتحمل للناس رسالته وهدايته ونوره المبين، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وبهذا الفضل الإلهي اجتمعت للرسالة الخاتمة كل عناصر النجاح، والاستقرار، والاستمرار، من:

(الرسول الأكرام، والكتاب المعجز، والأمة المستخلفة لحمل هذا الحق).

خصائص الأمة المستخلفة:

وقد زود الله تعالى هذه الأمة بجملة من الخصائص، المناسبة لعموم الرسالة، وختم الأنبياء، والمعجزة الدائمة (القرآن)، ولذلك كانت نسيجا فريدا بين الأمم، موصول التشريف والتكليف ومن ذلك أنها:

١- أمة عالمية:

طليعتها العرب، وامتدادها الناس جميعا، تبعا لعموم رسالته ﷺ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [**الأعراف**: ١٥٨].

ويسمى القرآن الكريم العرب (قومه)، ولذلك أنزل الله المعجزة الكبرى بلسانهم، لأنهم كانوا فاتحة الخطاب الإلهي، وطليعة الأمم دعوة، وقبولا، وجهادا في سبيل الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ..**﴾ [**إبراهيم**: ٤].

ويسمى القرآن الكريم المؤمنين به ﷺ (أمته)، أو (أمة الإجابة) كما يقول العلماء، تمييزا لها عن (أمة الدعوة) وهي الناس كافة في كل زمان أو مكان كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..**﴾ [**سبأ**: ٢٨].

وأمة الإجابة هم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..**﴾ [**آل عمران**: ١١٠].

٢- أمة وسط:

كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..**﴾ [**البقرة**: ١٤٣]. أي أخياراً عدولا، أجود الناس دينا، وخلقا، وطاعة، وجهادا، وشعارهم: (سمعنا وأطعنا)

لذلك استجابوا لله وللرسول في كل موطن، وكانوا يسارعون في الخيرات، ويتنافسون في الطاعات بفضل هذا (الجعل) الإلهي الذي يسر له الأسباب من تربية الرسول ﷺ، وتربية القرآن الدائمة لهم، فخرجت هذه الأمة الفضلى مؤسسة على الإيمان الزكي، والخلق الرضي، والبذل والعطاء، والتضحية والفداء، وهذه أعظم مؤهلات الأمم لحمل هذا الدين القيم للناس، وقد كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان أعظم تصديق لهذا التشريف الإلهي، بما قدموه من تكليف وانقياد.

٣- الأمة الشهيدة على الناس في الدنيا والآخرة:

لقد اصطفى الله محمد ﷺ ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وأعطاه الكتاب المعجز تبيانا لكل شيء، فصار ﷺ المعصوم المعلَّم هو (الشاهد) على ما في الأرض جميعا من حق أو باطل.

وإلى شهادته ينبغي أن يرجع الناس جميعا ليتعلموا الحق الذي يرضاه الله، أو الباطل الذي يبغضه وينهي عنه.

وقد وثق الله تعالى علمه وشهادته بالقرآن المعجز، الذي هو كلام الرب الأعلى، ووحيه الأوفى، ومعجزته الممدودة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ..**﴾ [**المائدة**: ٤٨].

ومعنى المهمين: الأمين - والشاهد - والحاكم.

فالقرآن العظيم له كل ذلك:

فهو (الأمين) على الكتب السابقة يخبر بحقها التي جاءت به، وبما أضيف إليها من أباطيل وتحريف أهل الكتاب.

وهو (الشاهد) المحفوظ إلى يوم القيامة، ليكون قوله (معيارا) يوزن به كل ما ينسب إلى الوحي الإلهي.

وهو (الحاكم) عليها بالصحة أو بغيرها، وهي معان متقاربة.

ولقد أخذت الأمة الإسلامية من الشاهدين الأمينين.

الرسول المعصوم ﷺ .

والقرآن المحفوظ بحفظ الله تعالى.

وأمرت أن تحمل هذا الحق للناس مع رسول الله ﷺ وبعده إلى يوم القيامة، فكانت (شهيدة) على كل ما في الأرض من مناهج، وشرائع، ومذاهب وأفكار، بما تعلمته من الوحي الإلهي الوثيق.

وقد تكرر هذا الوصف القرآني للأمة الإسلامية تشريفا لها، وتكليفا بمهمتها ورسالتها الجليلة، كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** .. ﴾ [**البقرة**: ١٤٣].

وللشهادة هنا معنيان:

(أ) شهادة الدنيا:

بأن يكون الرسول ﷺ شاهدا على أمته وعلى الناس في حياته، بما معه من الحق اليقيني، وحكما عليهم يصحح الأمور، ويبطل التحريف.

وتكون أمته شهيدة على الناس بسيرته وسنته وكتابه بعد وفاته – كما كانت معه في حياته – قيادة للأمم، وتعليما للناس. وتمييزا بين الحق والباطل، بما معها من ثوابت الكتاب والسنة.

ولهذا عكف رسول الله ﷺ على تربية هذه الأمة، وإرشادها، وغرس معالم الإيمان والتوحيد في قلوبها، وأقوالها، وأعمالها لتكون أهلا لهذه المهمة العظمى في حياته وبعد وفاته، ثم في الطريق الطويل أمامها إلى يوم القيامة وفي الحديث الشريف تأييد واضح لهذا المعنى، ومنه قوله ﷺ :

(أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة فقالوا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، فقالوا: واثنان؟ قال: واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد)(١).

---

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

وقوله ﷺ: (يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن، والثناء السيئ، أنتم شهداء الله في الأرض)[1].

والأمة التي تقوم بهذه الشهادة هي الأمة الوسط، التي زكاها الله تعالى، والتي ربيت على أصدق العقائد، وأرقى الأخلاق والآداب والفضائل، وهي - بهذه المواصفات - التي استخلفت في الأرض مكان العصاة البغاة من بني إسرائيل، أو عبدة المسيح.

وهي هي التي انتدبت لتقوّم (بمعيار الوحي) كل ما في الأرض من مذاهب، وشرائع، ونظم وأمم.

وهي هي التي دفعت ثمن هذه الريادة والإمامة عملا صالحا، وجهادا متواصلا، والتزاما صادقا، ولذلك كافأهم الله تعالى بالنصر والتمكين، وبإصلاح العباد، ومحق الظلم والفساد، وتلك عاجل بشرى المؤمنين في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا؛ ومنها:

(ب) شهادة الآخرة:

وهي شهادة في أصعب المواقف والأحوال، حين تجمع الأمم، وينزع من كل أمة شهيد عليهم، فيقوم الرسول ﷺ شاهدا على أنه بلغ أمته رسالات ربه، وتقوم الأمة مصدقة لرسولها، وشاهدة له بالبلاغ، بل تشهد لكل رسول قبله حين تمارى الأمم في بلاغ الرسل، فتقوم شهادة الأمة الإسلامية حجة لكل رسول، بل حجة على كل أمة تتمارى وتكذب رسولها صلى الله عليهم أجمعين.

وقد تبين هذا بالعديد من الأحاديث التي رواها البخاري وغيره من أهل السنن[2].

٤- الأمة المكلفة:

إن الله تعالى قد أفاض من فضله على هذه الأمة ألوانا عديدة من التشريف والتكريم، فجعلها بذلك في المقام الأعلى من الأهلية والاعتبار،

---

(١) رواه ابن ماجه، وأحمد في المسند، وابن مردويه كما ذكر ابن كثير في تفسير الآية الكريمة.

(٢) انظر تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير عند تفسير الآية الكريمة من سورة البقرة.

لذلك كانت محلا للخطاب الإلهي الأسمى، وللتكليف بمعالي الأمور، وعزائم الحق.

والأمة الإسلامية بذلك ليست مجرد أمة عابرة في التاريخ، ولا هي حلقة من حلقاته التي تستنفد أغراضها ومهمتها في الحياة، ثم تسقط كأوراق الخريف الذابلة في سباق التطور أو التشريع، كما سقطت قبلها أمم وشعوب، وحضارات ودول!!

وإنما الصحيح أنها أمة بقاء ونماء، وامتداد موصول حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنه تعالى قد أخرجها في الأرض إخراجا لمهمة عظمى، واستخلفها لأمر خطير لا تقوم حجته على الناس إلا به، هو أن تكون امتدادا أمينا لصوت النبوة الخاتمة بعد وفاة الرسول ﷺ، ولتحمل للناس رسالة الله الشاملة الكاملة، لذلك كلفها بمهمة التطبيق والالتزام بالإسلام لتكون نموذجا عمليا لكماله وجلاله، وناط بها مهمة الدعوة والبلاغ للعالمين على نمطها القرآني، وكتب عليها مهمة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله عز وجل، لا يريدون بذلك علوا في الأرض ولا فسادا، وإنما هم رحمة مهداة للعالمين، على ما نبينه في الصفحات التالية إن شاء الله.

أبيض

الفصل الخامس
المهمة العظمى للأمة المسلمة

خلاصة ما نريده هنا هو:

أن هذه الأمة هي وريثة النبوة الخاتمة.

وحاملة رسالتها للناس: (تطبيقا، ودعوة، وجهادا).

وبذلك تقوم حجة الله على الناس بعد ختم النبوات.

وتظل النبوة المحمدية الشاملة ممدودة موصولة في العالمين رحمة وهداية ونورا.

فإذا قصرت الأمة الإسلامية عوقبت أشد العقاب، لتعود إلى مهمتها التي لا بديل، عنها، ولا استخلاف لغيرها، بعد نزول القرآن، وإنما الاستخلاف هو الاستبدال من داخلها: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣٨]. وسنتحدث عن جوانب هذه المهمة العظمى بالترتيب:

الجانب الأول: التطبيق والالتزام:

فليس الإيمان بالتمني، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، لذلك جاءت شرائع الإسلام وأحكامه مفصلة منوعة، منها ما هو فرض عين على كل فرد بذاته، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو واجب أو ما دونه، ومنها ما هو إلزام للجماعة، ومنها ما هو إلزام للولاة والحكام، ومنها ما هو منوط بالعلماء والأمراء معا، على ما هو مبين مفصل في ديننا، قولا، وعملا.

وقد شرع الله تعالى لنا نظاما معجزا لحراسة هذا الدين، والالتزام بتعاليمه الهادية، ومن ذلك:

١- أن رأس الأمر عندنا هو الإيمان بالله الواحد الأحد، وأنه على كل

شيء رقيب، ولذلك كانت (تقوى الله) أساس التكليف حتى يراقب كل فرد نفسه، ويحملها ذاتيا إلى طاعة الله، والاستسلام لحكمه وهديه.

٢- ثم أمر الله أن تتكون (أمة) مخصوصة في داخل الأمة الكبيرة، من الدعاة، والعلماء، والهداة يذكرون بالخير والمعروف، وينهون عن المنكرات حتى لا ينسى الناس التطبيق والالتزام في غمار الحياة ومشكلاتها، قال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد خص الله بهذا التكليف (العلماء) حتى يقوم بهذا الواجب أهل العلم والفهم، وهم (ورثة الأنبياء)[١] فيسمع لهم الناس من جانب، ولا يخطئون الطريق من جانب آخر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

٣- ثم حث (المجتمع الإسلامي) كله ليكون حارسا على هذا بما شرعه تعالى من إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل جعل الله ذلك أول مقومات الخيرية للأمة المسلمة فقال:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

وجعل الله تعالى التخلف عن هذا من صفات المنافقين.

٤- وقد كلّف الله تعالى (الأسرة) المسلمة بحراسة هذا الالتزام كما قال تعالى في شأن الآباء، والأمهات، والأولياء، وقد جمعها النبي ﷺ في حديث (المسئولية) فقال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[٢].

---

(١) هذا جةزء من حديث نبوي شريف، رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود في سننه: (أول كتاب العلم، والترمذي، وابن حبان، والحديث صحيح بمجموع طرقه..

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٥- ويأتي في نهاية المطاف تكليف (الحكومة المسلمة) بحراسة الدين، ورعاية التطبيق، وتنظيم الالتزام، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك بنفسه ليلا ونهارا، وكما فعل خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ولذلك يعرف العلماء (الإمامة) الإسلامية بأنها:

(موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به)[1] وكل هذه الأمور من فضل الله على هذه الأمة بشريعته الهادية، وهي تترادف وتتعاون على حراسة هذا الدين العظيم، وجمع القلوب والجهود حوله، وتجديد الصلة بتعاليمه وأنواره، وهذا خير ما يحفظ الناس في دنياهم وأخراهم، وصدق الإمام الغزالي حين قال:

(الدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع).

المسئولية الشاملة:

وهكذا نرى أن التطبيق والالتزام هو مسئولية الأمة جميعا، حاكمين ومحكومين، ودعاة ومدعوين، ورجالا ونساء، وإلا دخل الفساد على الجميع، واختلت أمورهم كلها، كما هو حادث في أمتنا الآن في كل نواحي حياتها!! والمتأمل في القرآن الكريم يلاحظ أمرا على غاية الأهمية، وهو:

كثرة توجيه (الخطاب) لجماعة المسلمين: أمرا، ونهيا، وإراشادا، وتحذيرا، مما يقطع بأن حراسة الدين، والتزام الإسلام هما مهمة كلفت بها الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، حتى في عهد النبي المعصوم ﷺ حين كان يتنزل القرآن.

وعلى سبيل المثال: ينادي الله تعالى المؤمنين والمؤمنات، بهذا العنوان الكريم: (يأيها الذين آمنوا) تسعين مرة في القرآن، وفي أكبر وأخطر قضايا الدين والحياة مثل:

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص٥.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والمعنى: التزموا شرائع الإسلام جميعها، من غير تجزئة ولا تفريق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ .. ﴾ [البقرة: ١٧٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. ﴾ [البقرة: ١٨٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وقد استجابت الأمة المسلمة لله وللرسول، وعلم الله صدقهم ظاهرا وباطنا، فصدقهم وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، والعاقبة للمتقين، والصورتان معروضتان أبدا:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

الجانب الثاني: الدعوة والبلاغ

ولقد كانت هذه مهمة الرسل عليهم السلام عامة، والمهمة العظمى لمحمد ﷺ خاصة، لأنه بعث مثلهم هاديا وداعيا، وزاد على ذلك بما أعطى من المعجزة الكبرى، ذلك الكتاب الكريم الذي يتلوه على الناس، وهو يقوم على الحوار والبيان، والحجة والبرهان، والحث على النظر والفكر فيما يدعو إليه من حقائق الحق، في التوحيد والبعث، والحشر والجزاء، وعجائب الخلق الإلهي، وما فيه من دلائل القدرة الإلهية الباهرة في النفس والكون.

ولقد وضع رسول الله ﷺ ذلك موضع التطبيق العلمي الموفق، فدعا إلى الله على بصيرة، وبلغ رسالات ربه بلاغا مبينا، وحاور المشركين طويلا رغم غلظتهم البالغة قولا وعملا، وقد علمه ربه ومولاه حقائق الدعوة، وطرائق البلاغ، وضرب له الأمثال من حوار الرسل والأمم، وكان القرآن يتنزل معلما

وهاديا، فاجتمع له ﷺ في دعوته وبلاغه كل أطراف الحق، والخير، وكان بذلك يؤسس دينا، ويعلم أمة، ويقدم للناس أعظم قدوة وأسوة، تظل مثالا يحتذي لأمته المستخلفة من بعده، وللعلماء والدعاة خاصة الذين يحملون أمانته، ويلتزمون سنته ﷺ .

ولقد كان ﷺ صادقا أمينا بفطرته، وعلى خلق عظيم بفضل ربه تأديبا وتعليما، وحكمة وبصيرة، فكان لدعوته وبلاغه أطيب الثمرات، وأبر البركات ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل** : ١٢٥].

وهذه الآية الكريمة من جوامع ما شرع الله تعالى لرسوله، ولأمته من بعده في الدعوة لهذا الحق الإلهي، الذي هو خير ولا يدرك إلا بالخير، وقد صدرت بفعل الأمر (ادع) والأمر للوجوب، وكل حقائق هذا الدين واجبة البيان، والدعوة إليها، لأنها خطاب الرب الأعلى لعباده لهدايتهم ولإنقاذهم في الدنيا والآخرة.

ثم ترشد إلى ثلاثة من أجل أساليب الدعوة وهي:

(الحكمة) وهي وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، بالعقل، والفهم، والفقه في الدين، وحسن تقدير المواقف، واختيار الأنسب من الكلام، والرجال، والأحوال.

(والموعظة الحسنة) والمراد بها التذكير بالخير، ومع ذلك قيدها بالحسن والتلطف في أسلوب الدعوة، ليكون الداعية جميل الغاية، وجميل الوسائل والأساليب الموصلة لها.

(وجادلهم بالتي هي أحسن) والجدال هو المحاورة على سبيل المنازعة والمغالبة، والأصل فيه: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة[1].

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني مادة (جدل).

والإنسان أكثر شئ جدلاً، وحبًّا للغلبة على خصمه، ولكن الله العليم الحكيم يأمر نبيه ﷺ في مواقف المنازعة أن يعلو بحواره عن هذه العادة، فلا يحاول أن يسقط خصمه على الأرض، أو أن يدخل حقائق الحق في شعاب المنازعة الوعرة، وإنما يحاور في مواقف المعاندة (بالتي هي أحسن) أي المبهج للنفس، الأبعد عن الشبهة، وذلك بالكلمة الطيبة، والألفاظ المختارة، والصدر الرحب، والوجه الباش، واحتمال نزوات الخصوم بصبر جميل، وإشعارهم بأن الأمر هو بحث عن الحق، وطلب للخير، ومحاولة للمعرفة الصحيحة والفهم.

وهذا أمر بالغ الصعوبة والعسر النفسي، ولكنه أنجع الوسائل لكسر حدة الخصوم، وتلطيف شهوة المنازعة والمعاندة، خاصة في حقائق الدين، التي عليها سعادة الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم بنفوس الناس، ويريد بهم اليسر، ويحب لهم النجاة، ولذلك لم يكتف بطلب (الحسن) من الوجوه والوسائل، وإنما أمر (بالأحسن) في عامة المواقف، منعا للعناد، الذي يغلق على الخصوم منافذ التعقل، ويقودهم إلى أشأم المصارع بالكفر في الدنيا، والنار في الآخرة!!

إن إنقاذ أمثال هؤلاء من ضراوة أنفسهم، ومن عواقب العمى الذي يغشاهم يهون على كل داعية أن يختار (الأحسن) بطيب نفس منه، إنقاذاً للآخرين، فكيف إذا كان الداعية هو المبعوث رحمة للعالمين؟ ﷺ.

ولذلك وجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأمته جميعاً إلى هذا (الأحسن) بأسلوب القصر الذي لا تخيير فيه، حين يتعلق الجدل (بأهل الكتاب) بالذات، لأن لديهم علماً سابقاً قد يغرهم ويغريهم بالجدل، ولديهم تحريفا هائلا في دينهم ورثوه عن أسلافهم قد يضلهم ويجعلهم يتصلبون على باطلهم، لذلك يحتاجون أكثر من المشركين إلى غاية الملاطفة والمحاسنة، حتى يسمعوا كلام الله وهديه في هدوء وروية، رجاء أن يهتدوا إلى الحق الذي يصدق ما معهم من الحق، ويصحح ما ورثوه من الباطل، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي**

﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد جمع الله تعالى حكمة الدعوة والبلاغ جميعاً في كلمات وجيزة، خاطب بها رسوله والمؤمنين فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله تعالى: (على بصيرة) أي على معرفة وتحقق وطمأنينة قلب، لأن البصيرة في الأصل: الإدراك القلبي.

وهذه من أجمع الوصايا الإلهية لأساليب الدعوة الناجحة، التي يكون الداعي فيها بصيراً بالكلمات والبراهين، وبالمدعوين وأحوالهم، وبالوقت المناسب، والقدر المناسب، وكذلك يكون الداعي مطمئن القلب لدعوته، ويتعامل مع المدعوين بحواسه الظاهرة، وبمشاعره الباطنة، فإذا صدق ظاهراً وباطناً كان ذلك أدعى للقبول والإقبال، وأرجى للاستجابة والهداية، وما خرج من القلب حل في القلوب، وتمكن في الأفئدة.

وختام الآيتين السابقتين يعطي توجيهات ربانية لا يعقلها إلا العالمون.

ذلك لأن بعض الناس حين يسمع هذه الوصايا القرآنية الجليلة بالتزام الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدل بالأحسن الأتم، والتبصر بمعناه الأوسع حين يسمع هذا بما أفرط في اللين والتساهل، فتختلط عليه القضايا، وقد وجدنا أمثال هؤلاء يجامل على حساب الحق، أو يتساهل في قبول الباطل، ويعدّ ذلك لونا من الكياسة أو السياسة المقبولة دينا، وهذا خطأ شديد لأن هذه الأمور هي وسائل وأساليب لتوصيل الحق واضحا إلى الناس، والحق ذاته ليس محلا للجدل أو المساومات، خاصة في التوحيد، ونبذ الشرك، والخضوع لشريعة الله الذي هو معني (الإسلام)، لذلك يوصى الله تعالى باللين، والحكمة والبصيرة، مع الثبات التام على حقائق الحق الذي علمنا إياه.

ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لأن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن لا ينبغي أن تنسينا أصل القضية

في التوحيد، وإسلام الوجوه والقلوب لله الواحد القهار، وأهل الكتاب قد حرفوا هذا الأصل تحريفاً هائلاً كما قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

ولذلك أيضاً ختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهذا تنزيه لله تعالى عن الشرك والنقص، وإعلان واضح بأننا موحدون لا نقبل الشرك والشركاء، مع التزامنا التام بالدعوة إلى الله على بصيرة، بمعناها الواسع الجميل.

ولقد علّم الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يلتزموا دينهم الوسط بلا إفراط ولا تفريط فقال تعالى:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود].

فقد نهى الله تعالى في الآيتين الكريمتين عن الطغيان في الدعوة ذلك كالغلظة والشدة والفظاظة التي يستخدمها بعض الدعاة، ويظنون ذلك حماسا في الدين، وغيرة على الحق، وهو (إفراط) مذموم، ينفر الأصدقاء والخصوم.

وكذلك نهي الله تعالى عن اللين المفرط الذي يؤدى بصاحبه إلى أن يميع حقائق الدين، فيركن إلى الذين ظلموا، بمجاملة أو بمساهلة كما قدمنا، والركون كما يقول المفسرون: هو أدنى الميل، وهو (تفريط) مذموم أيضاً، ونعوذ بالله من الخذلان.

حوار بلا عنف ولا ضعف:

وهكذا يعلم الله رسوله والمؤمنين، حقائق الدين، وآداب الحوار وأساليب

الدعـوة والبـلاغ، بلا إفـراط ولا تفـريط، وبلا (عنف) يفـسـد الود، ويوغـر الصدر، ويصد الخصم عن الفهم، وينفر العقلاء عن الاستماع، فضلا عن الاستجابة.

وكذلك بلا (ضعف) من المسلم، يؤدى إلى إقرار الأخطاء، أو انتقاص الحقائق، أو محاولة الوصول مع الخصم إلى أنصاف الحلول فيما لا يقبل التجزئة، لأن ذلك خداع وكذب من جانب، وإضرار بالخصم نفسه حينما تقدم له الحقيقة ناقصة مبتورة لرغبة أو رهبة، فربما كان طالب حق فيلتبس عليه الأمر، والمسلم ينبغي دائماً أن يأخذ الدين بقوة وعزم، ولا يخجل من شئ ثبت بنصوص الكتاب والسنة، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا علم لنا إلا ما علمنا في كتابه المعجز، أو على لسان رسوله المعصوم ﷺ.

ولقد بلغت وصايا القرآن ذروة الإحسان مع الخصوم حين حدد (الجدل) بالتي هي أحسن، ووضع ذلك موضعا العمل والتنفيذ كما في قوله تعالى:

﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٦].

فالمشركون مخالفون للإسلام في أصل الأصول، ومع ذلك أمر الله رسوله بغاية الرفق بهم ليسمعوا (كلام الله) كاملاً غير منقوص رجاء هدايتهم.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

(وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله القرآن، تقرأه عليه، وتذكر له شيئا من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

وهذا ما لا نظير في شرائع البشر، ولا معاملات الدول والأمم، قديماً

وحديثاً، ولا تزال القوانين الدولية تلهث لتقترب من هذا الجلال القرآني، الذي وضع موضع التطبيق الشامل منذ قرون، في ظروف الحرب والسلام على سواء.

المثل الأعظم في الحوار:

ومن أعظم ما ورد في ذلك، المحاورات التي وقعت بين الرسول ﷺ ووفد (نجران) النصاري، والتي أنزل الله تعالى في شأنها فوق ثمانين آية من صدر سورة آل عمران.

وهي قصة جديرة بالتأمل والدراسة، لأنها مثال عملي تطبيقي، يشتمل على جملة من القواعد، والأصول، والحكم، والمعاني، والمعاملات الحسنة، والصبر الجميل في الحوار والمناقشة.

وقد أذن النبي صلى الله عليه وسلم بنزول هذا الوفد الكبير في مسجده الشريف، وأذن لهم أن يصلوا فيه على طريقتهم هم، وإلى قبلتهم في جهة المشرق، وظلوا يجادلون النبي ﷺ نحو ثلاثة أيام جدلاً مريراً متعصباً بلا دليل، وهو يقيم لهم البرهان على قضية القضايا وهي (التوحيد)، ونفي الشركاء، والأنداد، والأبناء عن الله تعالى، فيحتجون على ألوهية المسيح، أو بنوته لله، أو كونه ثالث ثلاثة بكلام ساقط لا معني له، بل يحزن كل مؤمن، حيث يرى رسالة واحد من أولى العزم من الرسل وهو عيسى عليه السلام، تتحول إلى وثنية مشركة، وإلى جدل عقيم، ضلوا به وأضلوا الناس في أخطر وأكبر قضايا الدين والدنيا جميعاً!!

وكان أول ما عرضه الرسول ﷺ على الوفد وأحباره أن (يسلموا)، فقالوا في لجاجة: أسلمنا قبلك، قال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ادعاؤكم لله ولدا، وعبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير!!

فجادلوه في المسيح طويلا، وزعموا أنه (ابن الله)، ولما قرأ عليهم النبي ﷺ الآيات التي ينكر الله تعالى فيها أشد الإنكار على من يدعي هذه

الدعوى البلهاء، قالوا: فمن أبوه؟ فرد عليهم بدليل القرآن المفحم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[آل عمران: ٥٩]

والمعني: إن كان عيسى آلهاً - في زعمكم - لأنه خلق من غير أب، فأولى بالألوهية أو بالبنوة آدم خلق من غير أب ولا أم، والحقيقة أنهما مخلوقان، وخلق آدم أغرب وأعجب من خلق عيسى، وهذا إبطال صارم لمزاعم النصارى.

فلما احتدم الجدل في طبيعة المسيح قال لهم النبي ﷺ في أسى: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة؟ ثم وضعته كما تضع ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام، ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون كما زعمتم؟!

وهكذا مضى هذا الحوار الجدلي في أوضح قضايا الدين، وهم يصرون على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام، بلا حجة ولا برهان!!

وقد تبين للوفد حروجة موقفهم، وإفلاسهم من كل دليل عقلي أو نقلي، بل مناقضتهم الصارخة لكل دليل، لأنهم يتربون من صغرهم على عدم (التفكير)، ويرون التفكير في مثل هذه الأسرار (كفرا) وهرطقة!!

لذلك افتعل بعضهم قضية هزلية للإمعان في الجدل العقيم، فقالوا: إذا لم نعبد المسيح فهل تريد منا أن نعبدك أنت يا محمد؟ وإلى هذا تدعونا؟!

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن أعبد غير الله، أو أمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني، ولا أمرني: وأنزل الله تعالى عليه ما يقرر هذا الأصل الذي رد به رسول الله عليهم:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وخلاصة الجواب:

أنه لا يصح ولا يستقيم من حيث المبدأ أن يدعو نبي يوحي إليه إلى عبادة غير الله، لأن التوحيد أصل الأصول جميعاً في دين الله، ومن أمر بعبادة غير الله ولو كانوا ملائكة أو أنبياء فهو آمر بالكفر، خارج عن بدهيات دين الله تعالى.

وإذا تقرر ذلك فكل ما نسبتموه إلى المسيح من دعوى الألوهية، أو النبوة، فهو لغو باطل، لا يتصور - من حيث المبدأ - صدوره من المسيح، ولا يصح من حيث الواقع والتاريخ، بل أنتم - أيها النصارى - تكذبون عليه، وتحرفون أصول الدين الإلهي جهلاً وجدلاً، من غير علم ولا هدى(١).

ومع هذا التعنت البالغ صبر عليهم النبي ﷺ، ولم يكرههم على شئ لا يرضونه، ودعاهم إلى (المباهلة) كوسيلة للفصل في الخلاف، بعد أن تأبوّا على دلائل النقل والعقل، وأوغلوا في الجدل، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى.

(والمباهلة) مأخوذة من الابتهال، وهو الاسترسال في الدعاء والتضرع، والمباهلة مفاعلة من الجانبين، وفيها نزلت الآية الكريمة: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

والمعني: لقد جئتهم بالعلم والحق في شأن المسيح، وأنه عبد الله ورسوله، فمن جادلك منهم فيه بعد ذلك فاطلب منهم أن تجتمع أنت وأهلك

---

(١) يراجع في هذا تفسير ابن كثير في صدر سورة آل عمران، وكتاب فقه السيرة للغزالي ص٣٢٨ وما بعدها وسيرة ابن هشام في وفد نجران.

الأقربون، وهم كذلك، ثم يدعو كل فريق على الآخر إن كان كاذبا بأن يهلكه الله تعالى.

وليس هذا حلا حوارياً عقلياً، وإنما هو موقف عملي بالغ التأثير النفسي، لذلك خافوا هم عواقب (المباهلة)، لاعتقادهم الداخلي يصدق محمد ﷺ، وأن الله سيهلكهم إن دعا عليهم، لذلك طلبوا عدم المباهلة، وطلبوا المصالحة، فقبل النبي ﷺ منهم ذلك، لأن هذا إقرار منهم في الحقيقة بخطاياهم في هذا الجدل، واعتراف بصدقه ﷺ.

لذلك استجاب لهم النبي ﷺ، وعقد معهم صلحا يؤمن مصالح المسلمين من دسائس دولة الروم، وهي قوة عالمية يومئذ، وأصبح نصارى نجران من رعايا الدولة الإسلامية بهذا الصلح العادل المكتوب في وثيقة، بل طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم أحد أصحابه الثقاة، ليفصل بينهم في قضاياهم وخلافهم، فأرسل معهم "أمين الأمة" أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، على ما رواه البخاري وغيره

ومن هذا كله يتبين:

١- أن النبي صلى الله عليه وسلم حاور وجادل هذا الوفد طويلا، مطبقاً معايير القرآن في ضبط الجدل بالأحسن، وغيره من الشروط.

٢- كان الحوار في أصل الأصول وهو التوحيد، وتأليه غير الله وقد حاورهم طويلا، ورد أباطيلهم، ولم يساوم أو يتنازل عن شئ من الحق، وإذا جاز الحوار في هذا فكل ما عداه أهون منه، لأن الحوار هو طريق الفهم والبيان، وإقامة حجة الله تعالى على الناس.

٣- أن النبي ﷺ أنزلهم في مسجده، وتركهم وما يدينون فلم يكرههم على شيء، وبعد أن تصلبت عقولهم عن قبول البرهان والدليل، دعاهم للمباهلة.

٤- بعد أن اتضحت الحقائق، وتقررت العقائد، وظهر الحق جليا لم يمنعه

ذلك من (التعايش) السلمي معهم على ما هم عليه، وقد قبلهم في دولته، وعقد معهم صلحا على غاية العدل والفضل، راعي فيه حقوقهم وحقوق المسلمين، وهذا هو الأساس في قبول غير المسلمين في دولة الإسلام، وعدم انتقاض حقوقهم بسبب الخلاف في الدين، مع تجلية العقائد وأحكام الدين، وعدم المداهنة فيها، أو تمييع حقائقها.

٥- من هذا وأمثاله كثير يتقرر أن الحوار الواسع، ثم التعاون حتى بعد الاختلاف، وهو عندنا - نحن المسلمين - ليس قضية سياسية تخضع للتقلبات، وإنما هو دين ملتزم، مقرر بنصوص القرآن، وعمل الرسول، وأن الأمة الإسلامية مكلفة به، ملتزمة تطبيقه في كل العصور ضرورة أنه وسيلتها العظمى في الدعوة والبلاغ.

أمة الرحمة المهداة:

وبذلك يبطل كل ما يذيعه ويشيعه الإعلام الغربي واليهودي عن (الإسلام) من دعاوي الإفك والكذب، وكل ما يتقولون به على الأمة الإسلامية المستخلفة لحمل هذا الحق إلى الناس، لأن العلم، والتاريخ، وكل منصف في الأرض شهود عدول لهذا الحق الإلهي.

ولأنه بهذه الأخلاق العليا في المحاورة، والاستدلال، كانت الدعوة تمضي إلا الآفاق، وكان البلاغ النبوي يسري إلى القلوب والأسماع، وكان التأثير القرآني ينشئ أجيالا جديدة على الإيمان النقي، والعمل التقي، ويزيح عن صدور الناس أدران الجاهلية وخطاياهم، ويملأ القلوب والنفوس بنور الله وهديه كما قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وعلى هذه الأنوار والمثل العليا ترتب أمة الإسلام، على الرحمة والتعقل،

والمحاورة البناءة، أو المجادلة بالتي هي أحسن، التي تستهدف إنقاذ الناس، لا إسقاط الخصوم بشهوات الجدال الفارغ، والمغالبات الجائرة.

لذلك كانت هذه الأمة حين تم لها الغلبة «علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» كما جاء في الأثر.

فبلغوا رسالات ربهم. ودعوا الأمم إلى الحق الإلهي الأسمى، ولم يكرهوا أحدا على الدين، ولم يبيدوا المخالفين لهم في العقائد، وإنما عاش في ظل الأمة الإسلامية المنصورة: (اليهود، والنصارى، والمجوس) وأمثالهم، وقد دخل الملايين منهم في دين الله طائعين، متأثرين بتعاليم هذا الدين الجليل، وما فيه من رحمة ومودة، وجدوهما واقعا ملموسا في أخلاق الأمة الإسلامية، وفي وضوح رسالتهم الربانية، وفي كريم دعوتهم لهذا الحق الإلهي الحنيف.

ولم يكن هذا الذي تمثله (أمة الإسلام) إلا امتدادا أمينا، لتعاليم الإسلام ذاته، الذي أراده الله تعالى رسالة عامة للبشر، يمتد طولا حتى يغطي آماد الزمن، ويمتد عرضا حتى ينتظم جميع الأمم، ويمتد عمقا حتى يستوعب خير الشرائع والنظم، وبذلك قدم للبشرية نمطا معجزا، تمازجت فيه الروح والمادة، والدعوة والقوة، والكرامة الإنسانية من خلال العبودية الصادقة لرب الكون ومليكه وحده لا شريك له، فلا غرو أن يكون له هذا التأثير المدهش في كل مكان، وأن تتلقاه كل الأقوام ببشاشة الإيمان، بعد أن تبلغهم حقيقته على وجهها الناصع الصحيح.

لذلك لم يكن للإسلام أي مصلحة في إكراه الناس على الدين.

ولم يكن لأمته حاجة ولا مصلحة إلا في الحوار والبيان، والدعوة والبلاغ، ولا يتم ذلك إلا في أجواء السلام، بعيدا عن أوزار الحروب، وغبار الصراع والصدام!

وهذا ما كانت تحرص عليه الأمة الجديدة كما علمها الله ورسوله:

١- أن تتعايش مع الذين يسالمونها، وأن تتعاون معهم على خير الجميع، وأن

يكون شعارهم: (العدل والإحسان)، والكف عن العدوان، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .. ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ.. ﴾ [المائدة: ٨].

٢- أن تكون أمة دعوة وبلاغ دائمين، لأن ذلك مهمة وجودها. ولا يقوم ذلك إلا على الحوار والبيان، والبصيرة والإيمان، والحكمة والإحسان، بلا ظلم ولا عدوان، وبذلك يفهم الناس خطاب الرب الأعلى، ويتميز الحق من الباطل، وتقوم الحجة البالغة مقام القوة الغاشمة، وهذا ما لا نظير له تشريعا أو تطبيقا في التاريخ البشري قديما وحديثا، والذي لا يزال مفعما بالطغيان والعدوان، والذي يدعو فيه دعاة السوء إلى صراع الحضارات، وصدام الثقافات، والتحالفات الدولية المتعاونة على الإثم والعدوان!! من أجل ذلك شرع الله تعالى الجهاد، وجعله من صلب مهمة الأمة الإسلامية بعد التطبيق، والدعوة على ما نبينه فيما يأتي:

الجانب الثالث: الجهاد الإسلامي

تقرر مما سبق أننا أمة ذات رسالة عظمى، استخلفها الله في الأرض لحمل هذه المهمة الجليلة، تطبيقا والتزاما من داخلها، ودعوة وبلاغا للأمم جميعا حولها، وبذلك تكون شهيدة على الناس، ورحمة للعالمين.

ولكن آفة الجاهليات الدائمة أنها تقوم على البغي والطغيان، وتواجه الحق بالأكاذيب والضلالات، وترفض كل حوار يقوم على العقل والمنطق والبرهان، وحين تتهافت ظنونها وأوهامها تلجأ إلى العنف الأرعن، والقسوة المفرطة، مدفوعة بغرور القوة التي تملكها، أو بقوة الغرور الذي يملكها، لتبطش وتظلم، وتستبيح الحرمات، وتسفك الدماء، وتسلب الأموال، وتسحق المستضعفين بالبطش والجبروت!!

هكذا فعل الطواغيت في كل العصور، وهكذا فعلوا مع النبي ﷺ وأصحابه

من أول العهد المكي، ورغم أنه جاءهم بالحق، وبدليل مبين من عند الله يحاروهم، ويحاجهم، ويلزم الرسول وأصحابه إلزاما بالصبر الطويل، والصفح الجميل: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ولم يأذن الله لهم حينئذ برد هذا الظلم الفاحش، بل قال لهم: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. ﴾[1] [النساء: ٧٧]. رغم التكذيب والتعذيب والمطاردة والمصادرة، وسفك الدماء، بل اضطر المسلمون إلى الهجرة المريرة إلى الحبشة أو البوادي، ولم يسلموا مع ذلك من الملاحقة الظالمة!!

فلما منّ الله عليهم بالهجرة إلى المدينة، وأواهم الله وأيدهم بالأنصار من أهلها استمر الكفار على ظلمهم بحبس المستضعفين في مكة، ومطاردة المهاجرين إلى المدينة، ومصادرة الأموال والديار، وقطع الطرق، وتحريض القبائل!

تشريع الجهاد:

ولذلك شرع الله تعالى للأمة المسلمة الجهاد دفاعا عن أنفسهم ووجودهم، وكفاً للظلم والبغي الذي يلاحقهم بلا ذنب ولا جريرة، كما قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ولقد كانت صدور المسلمين مليئة بالغيظ من هذا الظلم الجائح، وربما نفسوا عن أنفسهم بالانتقام من الظالمين، ولا لوم عليهم حينئذ!! لكن الله الحكيم العليم ضبط حركتهم بقواعد رسالتهم، التي تقوم على (العدل والإحسان)، فنهاهم أشد النهي عن العدوان، والظلم، والإفساد، وأمرهم أمرا جازما بالقسط حتى مع أعدائهم الظالمين المفسدين قال تعالى:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) الآية رقم (٧٧) من سورة النساء، وهي مدنية يذكرهم الله فيها بما كان يقال لهم في مكة.

ثم يقول تعالى بعدها:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وهذا أعدل وأحكم تشريع للقتال في التاريخ البشري كله:

١- فهو أمر بالقتال (في سبيل الله) لا في سبيل الشهوات، أو المنافع الشخصية، أو الطبقية، تلك التي أفسدت الأرض قديما وحديثا، وأشعلت فيها الحروب والكروب!!

٢- وهو رد للظلم إذا جاوز مداه فخرج الباطل مدججا بالسلاح، ليقاتل المؤمنين الأبرياء، أو ليرغمهم على الكفر: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.. ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣- ثم هو نهي صريح عن المبادأة بالاعتداء في القتال، لأن الحرب كره وضر وبلاء، والله لا يحب الذين يستخدمونها بلا ضرورة ملجئة!!

٤- ثم غاية هذا الإذن الإلهي بالقتال هي: كف الفتنة التي أشعلها طواغيت الكفار لإكراه المؤمنين على (الكفر) بالتعذيب، والإخراج من الديار .. الخ . وليسود الدين الإلهي الذي هو رحمته للعالمين، لا أن يتأسس لكم ملك شخصي، أو سلطان قومي، أو مجد أممي كما يفعل طواغيت الأمم في كل العصور!!

٥- ويبقى المبدأ القرآني ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] مثلا أعلى من مبادئ الحرب والقتال، وأصلا من أصول السلام الذي شرعه الله تعالى للعالمين.

فريضة إلهية:

لذلك فرض الله تعالى (الجهاد) على هذه الأمة، وجعله من أعظم العبادات والقربات لله تعالى، وبشر المجاهدين بنصر الدنيا، وجزاء الآخرة، خاصة لمن شرفه الله بالشهادة في سبيله.

والقرآن الكريم مستفيض بهذه المعاني فيضا، وقد أوجز النبي ﷺ منزلة الجهاد في دين الله فقال لأحد أصحابه:

(ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ .. رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد..)[1].

الحكمة العليا:

ومعلوم أن الله هو الرحمن الرحيم، والرءوف بعباده، ومع ذلك شرع الجهاد بحكمته العليا، لعلمه أنه ضرورة لازمة لا غنى عنها، لبقاء الحق وأهله في الأرض، ولرد العدوان إن وقع عليهم، ولردع البغي المتربص بهم، ولتأمين الداخلين في الدين من الفتنة التي تستهدف ردتهم، ولإعطاء المؤمنين فرصة لأداء (فريضة) الدعوة والبلاغ المبين بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم في نهاية المطاف، لمنع الحرب الظالمة من الاشتعال، لأن ضعف المؤمنين يغري الطواغيت بالعدوان، والظلم، والفساد في الأرض، وإعداد القوة يرهب المعتدين، والمتربصين المنتظرين، فتزداد بذلك مساحة السلام والأمان، كلما قلت نوبات الحرب والعدوان!!

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ..﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومن أجمع الآيات الكريمة في ربط (الجهاد) بمهمة الأمة الإسلامية الشاملة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[الحج].

---

(١) هذا جزء من حديث طويل من رواية معاذ بن جبل رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

والآيتان الكريمتان تكليف للأمة (بمهمة) جامعة، عبادة لله تعالى بمعناها الخاص (الصلاة)، والعام مثل بقية (فرائض الدين) والأعم المطلق وهو (فعل الخيرات)، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، وإطعام المساكين واليتامى والأسرى ولو كانوا كفارا، وغير ذلك من كل ضروب الخير بإطلاق.

ثم أمر الله تعالى الأمة أمرا جازما مؤكدا: (وجاهدا في الله حق جهاده) أي بإخلاص النية فيه لله وحده، وأن يكون شاملا للجهاد بأموالكم، وألسنتكم وأنفسكم، وهذه هي المهمة النبيلة للأمة المختارة: (هو اجتباكم) والمعنى:

(يا هذه الأمة: الله اصطفاكم، واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع، وما جعل عليكم في دينكم من ضيق بل وسعه عليكم مثل ملة أبيكم إبراهيم، والله سماكم المسلمين في كتبه السابقة وفي هذا القرآن، وهذه تسمية شريفة مقصودة لأنها تعني مدحكم بالاستسلام لأمر الله وشرعه، لتتحقق بكم حكمة الله العليا من قيام الرسول شاهدا عليكم، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بالدعوة، والبلاغ، وإقامة الحجة، والتزام العبادات والطاعات والمسارعة إلى فعل الخيرات، والمسابقة إلى الطيبات حتى تكونوا نموذجا عاليا في الأرض، يجذب الناس إلى هذا الدين الحق، بالأعمال النافعة، وليس بمجرد الأقوال، فداموا على إقامة الصلاة رمزا لخضوع لله تعالى، وإيتاء الزكاة رمز الخضوع لله أيضا، ورمز نفع الفقراء والمحتاجين والإحسان إلى الخلق.

فإذا وجدتم مقاومة من الباطل، وصداما من الأمم الظالمة فلا تخافوا، واطمأنوا إلى جنب الله عز وجل، وتوكلوا عليه، واستعينوا به، وتأيدوا بقوته وعزته لأنه هو (مولاكم) يتولى أموركم، ويحفظكم وينصركم على أعداء الحق في كل زمان ومكان، وهو سبحانه نعم الولى لكم، ونعم الناصر من الأعداء)[1].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير مع بعض التصرف والاختصار.

جهاد بلا عنف ولا ضعف:

ويبقى الجهاد الإسلامي هو المثل الأعلى (للحرب) في التاريخ البشري كله سواء في الغاية التي يستهدفها، وفي الضرورة التي يمثلها، وفي الشروط والضوابط التي شرعها الله تعالى معه، ولا غرابة أن تحمل للناس أكمل الشرائع والأحكام في بابها، لأنها تشريع الرحمن الرحيم، ولأنها من تطبيقات الرسول الخاتم، المبعوث رحمة للعالمين.

وهذا باب واسع جدا لا يتسع له بحثنا هذا، إنما نجتزئ منه ما يتصل بواقعنا المعاصر، من رد دعاوي الكذب، واتهام الدين الحق بالباطل والإفك، ورمي أهله وأمته بالإرهاب والعنف زورا وافتراء.

ومن ذلك:

أولاً: غاية الجهاد (في سبيل الله)

فهو عبادة لله تعالى، وإعلاء لكلمته ودينه، ورد للمظالم عن أمته ودعاته كما قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾**﴾ [**النساء**: ٧٥، ٧٦].

فالجهاد الإسلامي لا يكونه إلا لله نية، وفي سبيل الله وخدمة دينه عملا، ودفاعا عن المستضعفين (رجالا ونساء وولدانا) واقعا!

وكل حرب أو قتال لمجد شخصي، أو قومي، أو نفعي هي حرب شيطانية، وهي مضاده لسبيل الله تعالى، لأنها في (سبيل الطاغوت)، والظلم، والاعتداء!!

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رباء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ:

(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

ثانياً: الحرب ضرورة وليست غاية لذاتها

فقد بين الله أن الحرب مكروهة للطباع لما لها من آثار ودمار وأوزار، وما كتبها على الأمة إلا رحمة بها، حماية لوجودها ورسالتها، وإنقاذا لها من تسلط الطواغيت والشياطين، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذا توجيه إلهي حكيم يكسر شهوة الحرب والانتقام، وضراوة الشماتة والحقد المجنون الذي يقود الطواغيت إلى تدمير كل شيء، وإهلاك الحرث والنسل، وتخريب الحياة والعمران، كما قال الله تعالى عن شياطين اليهود: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

ولذلك علم الله المؤمنين ألا يبدأوا بالعدوان، وأن يستعملوا السلاح بقدر الحاجة الماسة، وليس للشهوة العارمة المخربة، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ..﴾ [الأنفال: ٦١].

ولا تتغير وصايا القرآن عن هذا المعنى إلا عند فجور الأعداء بنقض العهود، أو الغدر ونحوهما مثل ما فعلها اليهود خاصة!!

ثالثاً: الأخلاق العليا لضبط الحرب

ومن أجل ذلك جعل الله تعالى للحرب آدابا عليا، وأخلاقا ضابطة، تعصم المجاهدين عن الولوغ في الدماء، والاندفاع في الانتقام، وقد سبق الإسلام بهذه (الأخلاق الحربية) كل تشريعات الأرض، ولا تزال شرائعة سباقة لم يدركها العالم كله إلى اليوم، خاصة في التطبيق العملي، ومن ذلك:

١- عدم المبادأة بالعدوان: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٢- الالتزام التام بالعهود والمواثيق، ونبذ عهود الخائنين علانية قبل حربهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً .. ﴾ [النحل: ٩١].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٣- الاقتصار على قتال وقتل المحاربين فقط عند الحرب:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ﴾ [محمد: ٤].

يقول المفسرون: إن الأمر بضرب الرقاب إرشاد للغزاة إلى أيسر أنواع القتل في الحرب على القتيل وعلى المحارب.

وشدّ الوثاق للأحياء من الأعداء المحاربين معناه: أسرهم، واستبقاؤهم. وقد أوصى الله تعالى بالأسرى المحاربين، وهذا من أعاجيب التشريع الرحيم لأن الله أمر بإطعامهم: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، وخيرّ في الآية الكريمة بين المنّ عليهم بإطلاقهم مجانا، أو أخذ فدية مالية، أو مبادلتهم بأسرى المسلمين (على تفصيلات عند الفقهاء).

٤- الوصايا النبوية الجامعة في الحرب:

(أ) عن بريدة أن رسول ﷺ كان يقول:

(اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع) رواه مسلم.

(ب) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان) رواه البخاري ومسلم.

(ج) وعن حذيفة رضيا الله عنه .. عن النبي ﷺ قال:

(إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهل تجبر وعناد، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة) رواه الإمام أحمد، وقال ابن كثير هذا حديث حسن الإسناد[1].

وأصل هذا كله مأخوذ من جوامع القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي كما قاله الحسن البصري من: المثلة، والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال منهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وابن عمر، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل بن حيان وغيرهم)[2].

هذه حضارتنا الربانية:

وإذا لم تكن هذه الوصايا هي ذروة الحضارة، فهل لحق بها إلى الآن أدعياء الحضارة المادية الظالمة؟!

وإذا لم تكن هذه التعاليم الربانية هي صانعة الحضارة الصحيحة، والمدنية الراقية فأين مثيلها في التاريخ كله؟!

خاصة إذا تذكرنا أن هذه التعاليم الربانية كانت والناس في جاهلية جهلاء، وفي ضلال مبين، وفي همجية طافحة، مما يقطع بأن هذه شرائع الرحمن الرحيم لعباده في كل العصور.

ولم تتبع هذه الشرائع من البيئة (العربية) الجاهلية القاسية، بل هي مضادة لها.

ولا من قوانين (الفرس والروم)، وهما يومئذ مضرب المثل في الطغيان

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة.
(٢) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية رقم (١٩٠) من سورة البقرة.

والضلال، وامتهان الأمم والشعوب!!

ولا من البيئة (اليهودية) الغادرة في يثرب وما حولها، لأن تاريخهم في الغدر، والخيانة، وانتهاز الفرص اللئيمة، كان يومئذ - ولا يزال - خلقا يهوديا متأصلا فيهم!

ومن يقرأ أسفارهم الدينية المقدسة - بزعمهم - يعلم الفرق الشاسع بين تعاليم الوحي الإلهي المنزل من الرحمن الرحيم، وبين التحريف الحقود من اليهود في أسفارهم الحاقدة، فكيف (بتلمودهم) وهو أظلم قيلا، وأضل سبيلا؟!!

أمثلة للموازنة:

ونحن نقدم أمثلة هدية للإعلام اليهودي الكذوب، الذي يسيطر على الإعلام الغربي، والذي يتهم الإسلام والمسلمين بكل نقيصة، وليوازن كل عاقل منصف بين الحق والباطل، وبين أخلاق الإسلام الربانية الهادية، وبين تعاليمهم الشيطانية المظلمة:

إن اليهود لم يقفوا بتحريفهم عند حدود النظريات الأسطورية، وإنما جعلوا ذلك دينا لهم، ووحيا مقدسا نزل على أنبيائهم، مع أنه ليس إلا غلاّ وحقدا يجرف أمامه كل القيم الدينية والبشرية، ويدمر بذلك كل شيء حتى الأطفال والحيوان، وتتجاوز فيه فنون التعذيب كل طرائق الطواغيت والفراعين!!

ومن ذلك ما قالوه عن دخولهم مدينة (أريحا):

١- (وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف) (سفر يشوع: ٦-٢٢). ومعنى (حرموا) أي قتلوا وأبادوا.

٢- أما النبي الكريم داود عليه السلام، فينسبون إليه أفظع الجرائم، التي تتضاءل دونها مذابح فرعون لبني إسرائيل.

ففي سفر صموئيل الثاني (١٢-٣١):

«وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت:

مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد، وأمرّهم في أتون الآجرّ[١].

وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم»!!!

والوحي الإلهي، والرسل المكرمون براء - كل البراءة - من هذه الأساطير، ولكنها الأخلاق الوحشية عند المزورين، تتبدى وتتجسد في هذه النصوص المزورة المفتراه!!

وتنزهت كتب الله ورسله عن هذا الإفك المبين[٢] .

---

(١) أي أدخلهم في أفران حرق اللبن ليصير قوالب الطوب الأحمر وهو (الآجرّ).

(٢) راجع كتاب معركة الوجود بين القرآن والتلمود فقرة (١١) وعنوانها: (أسفارهم شاهدة عليهم).

الفصل السادس
المسلمون وحوار الحضارات والثقافات

وضح مما سبق أننا أمة ذات رسالة، تقوم على الدعوة والبلاغ المبين، والحوار المنصف، والبيان الهادئ المؤيد بالحجة والبرهان.

ولقد أقام المسلمون بهذه الرسالة حضارة عالمية باهرة، وتأسست عليها ثقافات واسعة النطاق والآفاق.

ولقد امتدت وتعددت علاقة المسلمين بأمم وشعوب شتى، وخالطوا حضارات وثقافات من كل لون، وعلمهم الإسلام قبول مبدأ التعدد البشري، وأنه فطرة وحاجة، بل حكمة إلهية لمصلحة الناس، ولذلك اتسمت الحضارة الإسلامية بسعة الصدر، وقبول الآخرين مهما تعددت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، والقدرة على التعامل البصير مع كل هذه الأنماط البشرية، وما يتبعها من فنون الحضارات ، وخصائص الثقافات.

وقد أدى هذا إلى تمازج الأمم والشعوب، وتحاور الأفكار، وتقارب المصالح والعادات، في جو العدل والإحسان الذي أشاعته في الأرض رسالة الإسلام، وحضارة المبادئ والقيم العليا.

ولذلك فإن علاقة المسلمين بغيرهم هي نمط راق، له أصوله وجذوره دينيا، وتاريخيا، وقد نجحوا نجاحا منقطع النظير في التعامل والاندماج مع قارات العالم القديم جميعا، ومؤثرين في شعوبها وأممها، ومتأثرين بكل نافع مفيد عند الناس، تقودهم وتحكمهم في كل الأحوال مبادئ دينهم الحق، ومعايير رسالتهم الفريدة التي تنظم هذه العلاقات:

الضوابط الإسلامية للتواصل الحضاري والثقافي:

وهي ضوابط ترجع إلى الإسلام ذاته، وتمتد مع أمته دائما لأنها جزء من رسالتها ومكوناتها الدينية، والنفسية، والتاريخية، ومن ذلك:

١- التعدد البشري ابتداء فطرة وحكمة إلهية:

وقد قرر الله تعالى ذلك لعباده بأساليب شتى، منها أن الله تعالى هو منشئ هذا التعدد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . .﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

لذلك لم تقم في نفس المسلم حواجز اللون، أو اللغة، أو الشعوبية، أو الطبقية العنصرية البغيضة قط، ما دام مسلما يتقى الله تعالى، ولذلك لم تستطل الحضارة الإسلامية بالبغي والإدعاء على غيرها من الحضارات، وإنما تجاورت، وتحاورت، وأعطت وأخذت مادامت لا تخالف دينها، وهذا تأسيس ديني ونفسي بالغ الخطر والأثر، وله ما بعده.

٢- التعايش السلمي بين الأمم والحضارات:

فالتعدد واقع صحيح، والأرض واسعة، وقد جعلها الله تعالى مجالا للتعاون، والتنافس، وتحصيل المعايش والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ . .﴾ [الأعراف: ١٠].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ . .﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . .﴾ [المائدة: ٢]

وهذا العدل والتعاون مع المخالفين فكيف بالمسالمين؟

٣- منع الاستخفاف بخصائص الأمم:

فلكل أمة ثقافة لصيقة بها؛ يبقى منها الصالح، ويحتاج الفاسد منها إلى وقت وصبر، ودعوة وحوار، وتفهيم وتعليم حتى يقلع عنها أصحابها عن اقتناع، وهذا ما جاء به الإسلام حتى لا ينفر الناس من الحق، ويلجأون إلى

العناد المهلك، فقد اعتمد على التدرج في الأحكام، وحرم الخمر على مراحل، وأسس العقائد أولا؛ وجاء بقاعدته مع أهل الكتاب، (اتركوهم وما يدينون)، مع دعوة القرآن الكريم إلى الإصلاح، والتغيير بالحوار، والبيان.

٤- نبذ الظلم والفساد والاستعلاء بغير الحق:

لأن هذا داء الحضارات، وسوس العلاقات البشرية المدمر، ولذلك حرمه الله على المؤمنين، وأمرهم بمنعه ومقاومته.

﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا . .** ﴾ [**الأعراف** : ٥٦].

فإذا نبذ الظلم والبغي والفساد، شاع الأمن بين الأمم، وكانت الفرصة للحوار الهادئ، والتفاهم الطيب، والبلاغ المبين لرسالات الله عز وجل، وهي منفعة دينية ودنيوية معا، للمؤمنين وغيرهم حين يتحاورون، ويعرفون الحق الإلهي بنماذجه الواقعية.

٥- لا إكراه في الدين:

وهو مبدأ خطير من مبادئ الإسلام، ألزم الله به الأمة المسلمة ابتداء، ولابد من مراعاته ليمتد الحوار والتفاهم بين الأمم، وعند الإكراه، والإرغام يموت الحوار، وتفور الأحقاد ، قال تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا . .** ﴾ [**البقرة** : ٢٥٦].

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا** ﴾ [**الكهف** : ٢٩].

والآيتان تقرران بصراحة تامة أن دين الله هو الحق المتفرد، ومع ذلك لا يجوز إرغام أحد على دخوله، وعلى كل عاقل أن يختار، ثم يتحمل هو مسئولية اختياره في الحالين، شريطة ألا يحاد الحق أو يعاديه باللسان أو باليد.

ويقول الله تعالى مخاطبا رسوله ، وأمته من بعده حاكمين ومحكومين: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا**

مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

لذلك عاش في ظل دولة الإسلام العالمية كل الأجناس بأديانهم ومذاهبهم، وعاش مع أمته اليهود، والنصارى، والمجوس وغيرهم قرونا متطاولة لا يرغمون على ترك دينهم أو عوائدهم، رغم تفرد المسلمين - يومئذ - بالسلطان والسيادة العالمية، بل حفظت لهم دماؤهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأديانهم بأمر الله عز وجل، لا من باب المناورات السياسية، أو المصالح الوقتية .. الخ!!

ودليل ذلك: أن الله تعالى قد أكد الوصية بالتزام الحوار، والدعوة، والبلاغ والبيان، الذي يتم به التعليم والتفهيم، حتى بعد فرض (الجهاد)، وبعد أن أصبح للإسلام قوة حربية مؤثرة، لما يعلمه سبحانه وتعالى من أن الحوار هو مدخل الإيمان، لذلك فتأثيره أبقى وأقوى، بل إن القوة الحربية نفسها هي لتوفير الأمان للناس ليتحاوروا بلا إكراه، لذلك ظل القرآن الكريم بعد فرض (الجهاد) يتنزل بالدعوة والبلاغ، والحوار والبيان، خاصة مع (أهل الكتاب) السابقين.

وقد تقدم كيف حاورهم الرسول ﷺ، حتى في التوحيد الذي هو أصل الأصول الدينية، بعد فرض الجهاد، وقد قال تعالى خطابا لنبيه ﷺ في هذه المرحلة:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ..﴾ [آل عمران: ٢٠].

أي فالواجب عليك - إن عصوك - البلاغ ، وليس الحرب ، لأن مجالها هو رد العدوان، وليس فرض الإيمان.

٦- لا إكراه في الكفر والعصيان:

وهذا مبدأ خطير مكمل لما سبق، لا يتم الحوار إلا به، ولا يستمر ويمتد إلا بحصوله، لأن الله تعالى منع (الإكراه) لإدخال الناس في دين الحق، فمن

باب أولى يمنع الوجه الآخر للإكراه الذي يزاوله الطواغيت والمفسدون في الأرض، وهو إكراه الناس على البقاء في الكفر، أو على الردة بعد الإيمان، أو أن يرغموا على الفسوق والعصيان، بوسائل الحرب والسلاح، أو التعذيب والابتزاز، أو الغش والخداع ونحو ذلك ..!!

وقد نهى الله تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، واستثنى الظالمين منهم، قال تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ..**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦].

يقول المفسرون: (بالتي هي أحسن كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة بالنصح على وجه لا يؤدي إلى الضعف، إلا الذين ظلموا بالإفراط في الاعتداء والعناد، فإنه يجب حينئذ الغلظة باللسان والسنان)(١).

معيار التعامل الحكيم:

وقد شرع الله تعالى لنا معيارا على غاية العدل والفضل، يضبط تعاملنا مع المخالفين لنا في الدين، على أساس ثابت نبيل.

فإذا قمنا بحق الله في الدعوة الأمينة، والبلاغ المبين، ثم لم يستجب لنا الناس أو فريق منهم، وظلوا على دينهم، فعلينا أن نسالمهم ماسالمونا ولم يؤذونا، وأن نباد أهم بالخير والمعروف، ولا نقطع علاقتنا بهم لأنهم: (أمة الدعوة) ومجال البلاغ والحوار، وقد جعل الله لهم أمرين: (البرّ) وهم اسم جامع لخلال الخير، (والقسط) وهو العدل باعتباره الحد الأدني للتعامل، قال تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [**الممتحنة**: ٨].

(والبر) هو لون من الفضل، والإحسان أعلى من (العدل) الذي هو أقل ما يجب أن يؤدي لهم، لمكافأتهم ليس على الإيمان، وإنما لأنهم كفوا عدوانهم على الحق الإلهي، وعلى أمته، وهذا تشريع لا يصدر إلا من الرحمن الرحيم.

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان في تفسير الآية الكريمة.

فإذا رفضوا الإيمان، وتتابعوا في العدوان: قتالا، أو إخراجا من الديار، أو معاونة للمعتدين فحينئذ يجب على الأمة أن تقف منهم موقفا حازما، وتقطع ما بينها وبينهم من الصلات ، والموالاة (محبة أو نصرة)، ومن خالف من المسلمين غفلة، أو شهوة، أو نفاقا فهو ظالم لنفسه، مدمر للحق وأهله، ينبغي أن ينأى بنفسه عن هذا المستنقع الأثيم، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩].

وهكذا شرع الله تعالى لعباده خير منهج في التعامل والحوار، الذي يمكن في ظل هذه الضمانات الإلهية، أن يثمر ويؤتي أكله في كل حين بواحدة من اثنين:

١- إما بإيمان المدعوين، وهدايتهم إلى دين الله ليفوزوا بخير الدنيا والآخرة.

٢- وإما أن يسالموا الحق وأهله فلهم العدل وزيادة، وبذلك يشيع الأمن، وتحفظ الحرمات، وتتحقق المصالح المشروعة للجميع، ويتقارب الناس، ويزدادون تفاهما وإنصافا، وتكون نتائج الجولة لصالح الحق الإلهي في نهاية المطاف، كما حدث بعد صلح (الحديبية) وغيرها.

أما الصورة الثالثة، القائمة على الطغيان والعدوان، فهي آفة الجاهليات المتكررة، وطواغيتها هم المسئولون عن الفتن والمحن، وإشعال الحروب، وتعطيل المصالح، وسفك الدماء، ولا حيلة مع أصحابها إلا بذل النفس، والنفيس لمقاومة هذا الباطل، قبل أن يهلك الحرث والنسل ، ويأكل الأخضر واليابس، ومن أجل هذا شرع الله تعالى الجهاد والاستشهاد ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يصلح على المفسدين!!

ضلالة صراع الحضارات؟!:

إن الحضارات البشرية لا ينطبق عليها هذا الوصف إلا إذا كانت مصلحة نافعة، محققة لخير الأفراد والجماعات الإنسانية، فإذا تجردت من

هذا وتحولت إلى ضده صارت انحدارا لا حضارة، وظلما وفسادا، لابد أن يكون عاقبة أصحابه خسرانا ودمارا، على ما جرت به سنة الله في أمثالهم!!

لذلك فالشأن في الحضارات أن تتعاون وتتنافس في تحقيق المصالح، ومتابعة الترقي المادي والمعنوي للإنسان، والتصارع أو التصادم مناقض لحقيقتها، معطل لمجراها، مدمر لثمرتها في إقامة (المدنية) البشرية، التي تأسست ابتداء على (الدين) الإلهي، أو حتى على قانون بشري ينظم الحقوق والواجبات، وإلا تحولت العلاقات الإنسانية إلى فوضى مدمرة، مناقضة لمقررات لكل دين، أو قانون!!

وإذا وقع هذا الصدام الدامى المهلك في أي عصر ، فآفته تأتي من طغاة الأمم، وهم الظالمون المفسدون في كل دورات الانحدار البشري، بسبب الأهواء والشهوات، أو التسلط والجبروت، أو الطمع والجشع لنهب ثروات الأمم الضعيفة، أو اغتصاب حقوق الناس!!

والطواغيت المجرمون يسارعون دائما لتقديم المبررات المزورة لهذا الصراع الحيواني الغليظ، ولا يتأخرون في استخدام كل ثمرات الحضارة الحقيقية لتكون وقودا للحروب والفتن، ولا يعدمون المنافقين الذين يصورون أن ذلك عمل حضاري لصالح الرقي الإنساني كذبا وزورا!!

وهذا في الحقيقة تدمير للحضارة، وتمرد على المدنية، وارتداد عن الارتقاء الإنساني، وتحطيم للقيم العليا التي أتاحت التقدم والازدهار للأمم والشعوب، والتي صار بها الإنسان إنسانا متميزا على ما حوله من الكائنات، مهما زعم هؤلاء المبطلون، وصدق الله العظيم حيث كشف حقيقتهم المتكررة في كل العصور:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

جهالة فرض الثقافات!:

والثقافات كما قدمنا هي خصوصيات الأمم، وطرائقها وأساليبها في

العيش والحياة، ولكل منها وجهة توليها، ووسائل تتبعها وتلزمها، والأمم في ذلك متباعدة تباعد لغاتها، وألوانها، والظروف المؤثرة فيها، لذلك تتنافر الأمم فيها أكثر من غيرها، وقد قدمنا طريقة الإسلام الحكيمة في هذا الباب. وكيف جعل عماد التغيير فيها يقوم على المحاورة الهادئة، والدعوة الهادية، والبلاغ المبين حتى تتحقق السنن الإلهية: ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ . .** ﴾ [**الرعد** : ١٧].

ولكن الحاصل الآن هو أدهى وأمر من مزاعمهم في صراع الحضارات، لأنهم اعتقدوا اعتقادا فاسدا بأن حضارتهم وثقافتهم وصلت بالبشرية إلى (نهاية التاريخ)، وأنها الطريقة المثلى في الأرض - مع كل ما فيها من إلحاد، وكفر بالله والمرسلين، وانحلال وفساد - ويحاولون فرض فسادهم هذا على غيرهم بكل وسائل الضغط، والإرهاب الفكري والحربي، ويجاهرون صراحة بنقل هذه (الثقافات) العفنة إلى مجتمعات المسلمين خاصة، مثل:

تبرج النساء تبرج الجاهلية الأولى، وزواج المثلين، والشذوذ الجنسي المطلق، وإباحة الزنى، والإجهاض، والتجارب الجنسية للمراهقين، وتقنين الحمل قبل الزواج فيما يسمونه (الأم العذراء) ، وإشاعة اختلاط الرجال والنساء في كل مواطن الإثارة الجنسية كالشواطئ ، والحمامات والنوادي الراقصة..!!

وقد قطعت (الثقافة) الغربية عامة، والأمريكية خاصة الشوط إلى نهايته، فعزلت من الفكر والواقع رقابة الله تعالى، وأنكرت ما وراء المادة من الغيب، والبعث، والجزاء، وانطلقت بعد ذلك معراة من كل ضوابط الخلق والدين، ليصبح كل ما ذكرناه شيئا محبوبا يغني بشيوعه عن تشريعه، وصار ديدن المجتمع كله بلا حياء، بل يتفاخرون به، وأصبحت كل الأخلاق والفضائل التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام ضروبا من الرجعية والتخلف في زعمهم، مع أن ما يتفاخرون به ما هي إلا (ثقافات) جاهلية مظلمة، وخاصة بأصحابها فقط، وتحرمها وتمنعها الأديان السماوية، وتمجها الأخلاق الوضعية الكامنة في بقايا الفطرة الإنسانية، وقد أهلك الله تعالى

بأقل منها أمما وشعوبا بائدة، كقوم لوط عليه السلام!!

وأشنع من هذا وأبشع ما تحاوله هذه القوى الفاسدة من محاولات شرسة لتعديل مناهج التعليم الديني في العالم الإسلامي، وحذف آيات الجهاد وأمثالها من المقررات الدراسية، حتى تنشأ أجيالنا مبتوتة الصلة بدينها وتاريخها، وتذوب في (ثقافتهم) الفاسدة!!

بل لقد بلغ الفجور مداه في محاولاتهم تغيير الإسلام ذاته، وتحريف أصوله ومصادره من القرآن الكريم، والسنة النبوية[1]، ليتلاءم مع أهوائهم، تمهيدا (للغاية النهائية) التي يخفونها تحت ركام من الحيل والأكاذيب، كما قال الله تعالى عن أسلافهم:

﴿ .. قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقد فضح الله تعالى هذه الغاية الدنيئة، تحذيرا للمؤمنين في كل زمان:

﴿ .. وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. ﴾ [البقرة: ٢١٧].

بل لقد بين الله تعالى مقدار ضراوتهم بأن هذه الردة لا تكفيهم، إلا إذا كانت على صورة واحدة، هي دخول دينهم (رغم أنهم هم تركوه)، أو الذوبان في دينهم الجديد: (دين الإفساد والفسوق والانحلال)، قال تعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

محنة المسلمين العاصفة:

ونعني بها محنة العالم الإسلامي، وقد سارت بها الركبان، ونحن بها الآن في وضع بئيس، غير مسبوق في تاريخنا، رغم ما مر بنا من أحداث جسام!

---

(١) هذه حقيقة مؤكدة، وثقتها كتب وأبحاث جادة، وانظر على سبيل امثال كتابي: (الإسلام والمسلمون مواجهة الحملات المعاصرة) ص٤٩ وما بعدها.

وهي محنة قديمة، بدأت منذ سنوات طويلة من التفريط في جنب الله، وذقنا ثمارها المرّة جيلا بعد جيل، حتى انتهت بنا إلى فتن كالحة، كقطع الليل المظلم، وطوقتنا بأمواج كالجبال و﴿ .. لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

أسباب المحنة:

وهي أسباب كثيرة متداخلة متشابكة، بعضها أمراض مهلكة، وبعضها أعراض منهكة، وربما استفحل العَرَض فصار مرضا برأسه، وأهمها:

١- الإعراض عن الدين:

وهو قانون إلهي صارم، فصله الله في القرآن تفصيلا، وجعله جزاء حتما للإعراض عن دينه في كل العصور، لأن الإسلام هو هدى الله تعالى ضمنه حقائق الوجود، وسنن الحياة، فمن تبعه فاز ونجا، ومن صادم سنن الله صادمته وأهلكته، قال تعالى:

﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وهذا تحذير قديم منذ درج آدم على الأرض، ولم يتخلف هذا القانون قط طوال التاريخ البشري.

وقد أخذ الله ميثاق هذه الأمة على دينه، واستخلفها على رسالته، وجعلها امتدادا لبلاغ النبوة الخاتمة، فلما وفت أعطاها قيادة الأرض، ومكّن لها دينها ودنياها.

ولما فرطت ابتلاها بالمحن والأعداء لتعود من قريب، فإذا فعلت عادت إلى حماية الله ورعايته، ونصره العظيم.

وقد تمادت هذه الأمة في هذه الجولة، فصارت إلى ما هي فيه الآن من الضعف، والهوان، والذلة، والصغار بين الأمم، وما ظلمنا الله ولكنا ظلمنا أنفسنا، بشيوع الظلم والاستبداد، واندلاع الفساد والإفساد، وضياع العدل،

والشورى، حتى انتهينا إلى تحكيم القوانين الوضعية مكان الشريعة الربانية، وفي جوها الموبوء شاع الربا والزنى، والخمر، وتبرج المسلمات تبرج الجاهلية، وتقاعس العلماء والأمراء، أو غلبهم طوفان الأهواء والشهوات، وضيعت العبادات والمعاملات، فكان لابد أن تلقي الأمة جزاءها الحتم الذي سبق به نذير الله:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴾ [طه: ١٢٤].

ثم تفاقمت البلايا مع هذا (الإعراض)، أو نتيجة له مثل:

٢- التخلف المزري:

حيث عادت الأمة التي قادت البشرية قرونا متطاولة، عادت إلى الجهل المظلم، والتخبط المهلك، لأنها أهملت حقائق الدين والدنيا، وغدت تعتمد على أعدائها في طعامها ، وشرابها، ولباسها، وصناعتها، وزراعتها، بل في سلاحها الذي تدفع به عن نفسها ودينها، ولم تنفعها تلك الثروات الطائلة، والبلاد الشاسعة، والعقول المفكرة، لما جاء وعد الله ﴿ .. فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومن يقارن أو يوازن بين حال أمتنا في (البحث العلمي) فقط، وبين اليهود أو بين الهنود فإنه يبكي طويلا، ولا يجد تفسيرا إلا أننا قد حق علينا (معيشة الضنك) أو «الفتنة التي تدع الحليم حيران»[1]، لأن الأمة فرت من ربها، وأهملت رسالتها التي استخلفت من أجلها!!

٣- تداعى الأعداء:

فقد تواثب علينا الأعداء من كل جانب، وقد وعدنا الله النصر عليهم ولو اجتمعت علينا الأرض جميعا، وهو لا يخلف الميعاد، لكن ذلك مشروط بالتزامنا هذا الدين كما بينا بالتفصيل.

---

(١) رواه الترمذي والدارمي وغيرهما.

فلما أخلفنا موعدنا، ونقصنا ميثاقنا مع ربنا سقطت هيبتنا، وانكشفت عوراتنا ومواطن ضعفنا، وقد نصرنا الله تعالى حين راجعنا وعدنا، كان ذلك في كل تاريخنا كالتتار حين اجتاحوا ممالك المفرطين في جنب الله، وكالصليبيين، والفرنسيين، والإنجليز[1] وغيرهم كثير.

ولما اتسعت ظلمات التفريط ، وتمادت الأمة وحكامها في هذا الطريق تمكن الأعداء في القرون الأخيرة منا وجاسوا خلال ديارنا، وكان نذيرا مفعولا، وواقعا ثقيلا!!

عداوة ضارية:

وكان أخطر ما رزئنا به - بذنوبنا - هذه الهجمات التي استطال علينا بها (الغرب) الأوربي، وأمريكا من بعده، أو هي امتداد له.

لقد احتلوا بلادنا أزمنة متطاولة، صار العرض فيها مرضا فاحشا، دمر علينا ديننا، وأخلاقنا، وشرائعنا، فضلا عن انتهاب ثرواتنا وبلادنا.

وكان من أفدح الجرائم التي رمونا بها غرس دولة (اليهود) في أرضنا، التي صارت (سرطانا) مركبا، يهدد حاضرنا ومستقبلنا أفدح تهديد، وصارت - بمعونة أمريكا والغرب - مدججة بالسلاح النووي ، والجرثومي مما يهدد أو يدمر وجودنا ذاته!!.

وقد قدمنا ذكر المحاولات الأخيرة لضرب الدين ذاته، وهدم شرائع الإسلام ونحن لا نجهل أن أعداءنا الآن متفوقون علينا ماديا بما لا يقاس، وأنهم سبقونا في هذه الحضارة المادية سبقا هائلا، لا سبيل إلى اللحاق بهم فيه إلا بالإسلام، ولكننا نحلل الأسباب، لنعلم فصل الخطاب، في هذه العداوة الطافحة، والتي لن نوقف خطرها إلا بمعالجة أصل الداء، أي بالعودة الشاملة إلى التزام الإسلام، دينا شاملا لكل شئون الحياة.

---

(١) قاوم المسلمون في مصر حملة نابليون مقاومة باسلة ففر من مصر، فقتل المسلمون خليفته (كليبر)، ثم رحلت الحملة مهزومة بعد ثلاث سنوات، وهزم مسلمو رشيد الإنجليز بعد ذلك بسنوات معدودة)١٩٧٠م) وتكرر مثل ذلك في العالم الإسلامي..

٤- إهمال الجهاد:

ونخصه بذاته هنا لأنه ذروة سنام الإسلام، وهو واسع المعنى ابتداء من (التربية) الصحيحة على الدين، والاجتهاد في الدعوة والبلاغ، وتعريف الناس بهذا الحق المبين، وما يتبع ذلك من بذل المال، والفكر، والقول، للحوار والبيان، ثم بذل النفس في سبيل الله حفاظا على الحق وأهله.

ونحن لا ندعو الأمة إلى الحروب والمعارك، لأننا كما قلنا مرارا: أمة دعوة ورسالة، لا أمة صراع وأحقاد، لكن الأعداء غلاظ شداد، يغريهم ضعفنا بالعدوان علينا، ويهمهم تماما أن تموت جذوة الجهاد في نفوس الأمة، فإذا علموا بقدرتها على البذل والفداء، وأنها تحب الموت في سبيل الله كما يحبون هم الحياة للشهوات .. إذا علموا ورأوا ذلك ترددوا طويلا في العدوان.

ونحن نعلم أن عدونا متفوق في هذا الجانب، وأننا فرطنا فيه طويلا، لكن الأمم قديما وحديثا حين تستجمع عزائمها، فإنها توقف البغي والعدوان بإذن الله ، مهما تكن قوة الأعداء.

إن حكومات المسلمين، وعلماءهم، ومؤسساتهم ينبغي أن تشيع في الأمة (روح الجهاد والاستشهاد) ، وتنشر فيهم (ثقافة) المقاومة دفاعا عن البلاد والعباد والمقدسات، ولا تترك نفسها فريسة لخداع أعدائها حين يسمون هذا (بالإرهاب) ونحوه، فالإرهاب هو ما يفعلونه هم من الظلم والبغي، وليس هو الدفاع عن النفس والدين.

وفي الأثر (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) وهذا صحيح تماما طوال التاريخ البشري، وإن أخطر ما تمنى به أمة أن تحب الحياة الذليلة، وتكره الموت في سبيل الله، ولذلك حذر النبي ﷺ من ذلك كما به التحذير، في حديثه الشهير:

«توشك الأمم أن تداعي عليكم، كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، فقال

قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت[1].

جهاد الدعوة والبلاغ:

ومن المهم هنا التذكير بالفرض الواجب علينا، وهو جهاد الدعوة والبلاغ المبين، وهو جهاد في قدرة الأمة يقينا، وهو أمضى من أسلحة الحروب، وهو بجانب أنه تكليف ديني، له تأثيره الواسع في الناس، لأنه يحمل لهم فهما لديننا، ومعرفة بحقيقتنا، وتذكيرا بحضارتنا، وبالمهمة العظمى التي أديناها للبشرية دينا ودنيا، وبالقسط العظيم الذي أسهمنا به في الحضارة البشرية الكبيرة، وقد اعترف به وأثنى عليه المنصفون من العلماء والمفكرين والأدباء في كل الأمم، فضلا عماله من أثر في تصحيح الصورة الشائهة التي يقدمها الإعلام الغربي واليهودي الحقود عن الإسلام والمسلمين.

وما المخرج منها؟!:

هذه هي المحنة العاصفة التي تكتنفنا، أو الفتنة القاصمة التي تهددنا، وفي الحديث: ألا إنها ستكون فتنة، قلنا: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ..»[2].

وهذا جواب يغني عن كل جواب.

ولا بديل عن ديننا بشموله إذا أردنا النجاة في الدنيا والآخرة.

ولابد أن نعي أن البشرية في أشد الحاجة إلى ديننا، بعد أن أفلست كل المناهج والمذاهب، وأن هذه مهمتنا النبيلة في الأرض، لنحمل لها هداية الله عز وجل.

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ثوبان رضي الله عنه، ورواه أبو داود في السنن (كتاب الملاحم - الباب الخامس: تداعي الأمم على الإسلام)، جـ٢، ص٤٤٦.

(٢) رواه الترمذي، والدارمي من حديث علي بن أبي طالب مرفوعا، وهو حديث حسن في أصح الأقوال.

وإذا كنا لا نستطيع أن ننافس أهل الحضارة في الجانب المادي مع أننا كنا أئمته من قبل، فإننا نستطيع أن ننقذ أنفسنا، وأن ننقذ الناس بدعوتهم وقيادتهم إلى صراط العزيز الحميد ، بعد أن نلتزم به شرعة ومنهاجا.

وإذا ظن بعض الضعفاء أن ذلك مستحيل لأن الدول الكبرى لا تسمح لنا بذلك، ولا طاقة لنا بمخالفتهم، ولا حربهم، وهذا منطق مقبول بمقاييس المادة، لكنه غير صحيح في موازين الدين، والإيمان، والقرآن، والمتواتر من تاريخ الرسل عليهم السلام.

فمن بدهيات اعتقادنا أن الله تعالى هو رب الكون، ومليكه، وهو الفعّال لما يشاء، وهو على كل شيء قدير.

وقد وعد عباده بالنصر المطلق إن التزموا دينه فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾ [محمد].

وحين دعانا للجهاد الحق تكفل بحمايتنا فقال سبحانه:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ ثم ختم الآية بقوله الكريم:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

وهل وافقت القوى الحاكمة على دعوة أي رسول؟ وهل منع ذلك الرسل والمؤمنين من المضي في دعوتهم ودينهم؟ وماذا كانت نتيجة الطرفين طوال التاريخ المتواتر؟ لقد سجل الله تعالى في كتابه الجواب عن ذلك في كل قصص الأنبياء عليهم السلام، بالإجمال أو بالتفصيل، وبالأسماء والوقائع في كل العصور، ويكفينا

قوله الكريم:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذا تأكيد إلهي قاطع، ونص على نصر (المؤمنين) في الدنيا والآخرة،

والانتقام من المجرمين، ثم إعلان صريح من رب العزة والجلال أن نصر المؤمنين هو حق عليه سبحانه، أوجبه على نفسه.

فإذا توكلنا على الله تعالى، وأخذنا الدين بقوة وعزيمة، فنحن في رعاية مالك الملك وحمايته بيقين، فمن عاش منا عاش حميداً عزيزاً، ومن قتل في سبيل الله كان شهيداً كريما في أعظم الدرجات عند الله تعالى.

أسْلِموا تسْلموا:

وهذا هو الغرض اللازم على الأمة جميعاً حاكمين ومحكومين، علماء وأمراء، وعلى كل ذي رأي وعقل، وعلى كل مسئول، بل على جمهور الأمة كلهم أجمعين: أن نسلم جميعاً وجوهنا وقلوبنا ومحيانا ومماتنا لله رب العالمين. لتسلم من الخطر الداهم، ولنكون أهلا لتنزل نصر الله وعونه علينا، ولننهض من رقدة العدم التي غشيتنا، وهذا هو طريقنا الوحيد، وخيارنا الصحيح، ولا وقت لدينا للهزل في مواطن الجد الخطير، ولا للتلاعب بالألفاظ والكلمات، وإلا فإننا سنواجه خطرا ماحقا، وأعداؤنا غلاظ شداد لا يرحمون، وما يجري في فلسطين وغيرها هو نذير من النذر البالغة: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

بشائر النصر العظيم:

وسينتصر هذا الدين إن شاء الله بنا أو بغيرنا، وسيعم الأرض جميعاً في جولته الخاتمة، وسيعود لقيادة البشرية العانية، إنقاذا لها من المصرع الأليم الذي يسوقها إليه كمهنة الإلحاد والعناد، من طواغيت الحضارة المادية، وذلك وعد الله الحق:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٣].

وذلك ما بشرنا به الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم:

(ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر

إلا أدخله هذا الدين، يعز عزيزاً، ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل به الكفر)[1].

اللهم اجعلنا من حزبك المفلحين، وجندك الغالبين واختم لنا ولأمتنا بخاتمة السعادة أجمعين.

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

أبيض

أهـم المراجــع

١- القرآن الكريم.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (دار الفكر - بيروت).

٤- تفسير روح البيان - الشيخ إسماعيل حقي (دار إحياء التراث).

٥- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - اختصار: الشيخ محمد على الصابوني (دار القلم - دمشق).

٦- مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان داودي (دار القلم - دمشق).

٧- المنهاج القرآني في التشريع - عبد الستار فتح الله سعيد (دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة).

٨- كتب السنة كالصحيحين ، والسنن، ومسند الإمام أحمد .

٩- الحضارة - الدكتور حسين مؤنس (سلسلة عالم المعرفة - الكويت - ط٢).

١٠- المدينة الإسلامية - الدكتور محمد عبد الستار عثمان (سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٤٠٨هـ).

١١- الإسلام فكرا وحضارة - الدكتور محمد كمال شبانه (بدون بيانات).

١٢- السيرة النبوية - ابن هشام (المكتبة التجارية - القاهرة).

١٣- فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي (دار الشروق - القاهرة).

١٤- الإسلام والمسلمون في مواجهة الحملات المعاصرة - عبد الستار فتح الله سعيد (دار الدعوة - الإسكندرية ١٤٢٣هـ).

١٥- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة ط: ٣.

١٦- الأحكام السلطانية - الإمام أبو الحسن الماوردي.

أبيض